
خطط المقريزى
الجزء
٤١
كتاب
التحرير
«كانت مصر هى مسقط رأسى، وملعب أترابى، ومجمع ناسى، ومغنى عشيرتى وحامتى،
وموطن خاصتى وعامتى، وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره، وعش مأربى، فلا
تهوى الأنفس غير ذكره. لازلت منذ شذوت العلم، وآتانى ربى الفطانة والفهم، أرغب فى
معرفة أخبارها، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها.»
تقى الدين أحمد بن على المقريزى

يكتب ويملى على اثنين ، ووجهه وشفتاه تلعب ألوان الحركات ، لقوة حرصه فى اخراج الكلام ، وكأنه يكتب بجملة أعضائه .

وكان له غرام فى الكتابة وتحصيل الكتب ، وكان له الدين والعفاف والتقى ، والمواظبة على أوراد الليل ، والصيام وقراءة القرآن . وكان قليل اللذات ، كثير الحسنات ، دائم التهجد ، ويشتغل بعلوم الادب وتفسير القرآن . غير أنه كان خفيف البضاعة من النحو ، ولكن قوة الدراية توجب له قلة اللحن وكان لايكاد يضيع من زمانه شيئا الا فى طاعة ، وكتب فى الانشاء ما لم يكتبه غيره .

وحكى لى ابن القطان أحد كتابه قال : لما خطب صلاح الدين بمصر للامام المستضىء بأمر الله ، تقدم الى القاضى الفاضل بأن يكاتب الديوان العزيز وملوك الشرق . ولم يكن يعرف خطابهم واصطلاحهم ، فأوعز الى العماد الكاتب أن يكتب فكتب واحتفل ، وجاء بها مفضوضة ليقرأها الفاضل متصحا بها ، فقال : لا أحتاج أن أقف عليها . وأمر بختمها وتسليمها الى النجاب ، والعماد يبصر .

قال : ثم أمرنى أن ألحق النجاب ببلبيس ، وأن أفض الكتب ، وأكتب صدورها ونهايتها ، ففعلت ورجعت بها اليه . فكتب على حذوها وعرضها على السلطان ، فارتضاها ، وأمر بارسالها الى أربابها مع النجاب .

وكان متقللا فى مطعمه ومنكحه وملبسه ، ولباسه البياض لا يبلغ جميع ما عليه دينارين ، ويركب معه غلام وركابى ، ولا يمكن أحدا أن يصحبه ، ويكثر زيارة القبور وتشييع الجنائز وعيادة المرضى ، وله معروف فى السر والعلانية ، وأكثر أوقاته يفطر بعدما يتهور الليل .

وكان ضعيف البنية ، رقيق الصورة ، له حدبة يغطيها الطيلسان . وكان فيه سوء خلق يكمد به فى نفسه ، ولا يضر أحدا به . ولأصحاب الأدب عنده نفاق ، يحسن اليهم ولا يمن عليهم ، ويؤثر أرباب البيوت والغرباء ، ولم يكن له انتقام من أعدائه الا بالاحسان اليهم أو بالاعراض عنهم . وكان دخله فى كل سنة ، من اقطاع ورباع وضياع خمسين ألف دينار ، سوى متاجره للهند والمغرب وغيرهما .

وكان يقتنى الكتب من كل فن ، ويجتلبها من كل جهة ، وله نساخ لا يفترون ومجلدون لا يبطلون .. قال لى بعض من يخدمه فى الكتب : ان عددها قد بلغ مائة ألف وأربعة وعشرين ألفا . وهذا قبل موته بعشرين سنة .

وحكى لى ابن صورة الكتبى أن ابنه القاضى الأشرف التمس منى أن أطلب له نسخة الحماسة ليقرأها ، فأعلمت القاضى الفاضل . فاستحضر من الخادم الحماسات ، فأحضر له خمسا وثلاثين نسخة ، وصار ينفض نسخة نسخة ويقول : هذه بخط فلان ، وهذه عليها خط فلان .. حتى أتى على الجميع وقال : ليس فيها ما يصلح للصبيان . وأمرنى أن أشترى له نسخة بدينار .

المدرسة الازكشية

هذه المدرسة بالقاهرة على رأس السوق الذى كان يعرف بالخروفيين ، ويعرف اليوم بسويقة أمير الجيوش . بناها الأمير سيف الدين أيازكوج الأسدى — مملوك أسد الدين شيركوه ، وأحد أمراء السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب — وجعلها وقفا على الفقهاء من الحنفية فقط فى سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة .

وكان أيازكوج رأس الأمراء الأسدية بديار مصر فى أيام السلطان صلاح الدين وأيام ابنه الملك العزيز عثمان ، وكان الأمير فخر الدين جهاركس رأس الصلاحية . ولم يزل على ذلك الى أن مات فى يوم الجمعة ثامن عشر ربيع الآخر سنة تسع وتسعين وخمسمائة ، ودفن بسفح المقطم ، بالقرب من رباط الأمير فخر الدين بن قزل .

المدرسة الفخرية

هذه المدرسة بالقاهرة ، فيما بين سويقة الصاحب ودرب العداس . عمرها الأمير الكبير فخر الدين أبو الفتح عثمان بن قزل البارومى ، أستادار الملك الكامل محمد بن العادل ، وكان الفراغ منها فى سنة اثنتين وعشرين وستمائة ، وكان موضعها أخيرا يعرف بدار الأمير حسام الدين ساروج بن أرتق شاد الدواوين .

ومولد الأمير فخر الدين فى سنة احدى وخمسين وخمسمائة بحلب ، وتنقل فى الخدم حتى صار أحد الأمراء بديار مصر ، وتقدم فى أيام الملك الكامل ، وصار أستاداره ، واليه أمر المملكة وتدبيرها الى أن سافر السلطان من القاهرة يريد بلاد المشرق فمات بحران بعد مرض طويل فى ثامن عشر ذى الحجة سنة تسع وعشرين وستمائة .

وكان خيرا كثير الصدقة ، يتفقد أرباب البيوت . وله من الآثار ، سوى هذه المدرسة ، المسجد الذى تجاهها ، وله أيضا رباط بالقرافة * ، والى جانبه كتاب سبيل ، وبنى بمكة رباطا .

المدرسة السيفية

هذه المدرسة بالقاهرة ، فيما بين خط البندقانيين وخط الملحيين ، وموضعها من جملة دار الديباج قال ابن عبد الظاهر كانت دارا وهى من المدرسة القطبية ، فسكنها شيخ الشيوخ (يعنى صدر الدين محمد بن حموية) ، وبنيت فى وزارة صفى الدين عبد الله بن على بن شكران سيف الاسلام ، ووقفها وولى فيها عماد الدين ولد القاضى صدر الدين (يعنى ابن درباس) وسيف الاسلام هذا اسمه طغتكين بن أيوب .

« طغتكين » : ظهير الدين سيف الاسلام الملك المعز بن نجم الدين أيوب بن شادى ابن مروان الأيوبى . سيره أخوه صلاح الدين يوسف بن أيوب الى بلاد اليمن فى سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، فملكها واستولى على كثير من بلادها . وكان شجاعا كريما ، مشكور السيرة ، حسن السياسة .

(*) ص٣٦٧ جـ٢ ، ط.بولاق .

قصده الناس من البلاد الشاسعة يستمطرون احسانه وبره . وسار اليه شرف الدين بن عنين ، ومدحه بعدة قصائد بديعة ، فأجزل صلاته ، وأكثر من الاحسان اليه ، واكتسب من جهته مالا وافرا ، وخرج من اليمن . فلما قدم الى مصر — والسلطان اذ ذاك الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين — ألزمه أرباب ديوان الزكاة بدفع زكاة ما معه من المتجر ، فعمل :

ما كل من يتسمى بالعزيز لها
أهل ، ولا كل برق سحبه غدقه

بين العزيزين فرق فى فعالهما :
هذاك يعطى ، وهذا يأخذ الصدقه

وتوفى سيف الاسلام فى شوال سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة بالمنصورة ، وهى مدينة باليمن اختطها رحمه الله تعالى .

المدرسة العاشورية

هذه المدرسة بحارة زويلة من القاهرة ، بالقرب من المدرسة القطبية الجديدة ورحبة كوكاى ... قال ابن عبد الظاهر : كانت دار اليهودى ابن جميع الطبيب ، وكان يكتب لقراقوش ، فاشترتها منه الست عاشوراء بنت ساروح الأسدى — زوجة الأمير أيازكوج الأسدى — ووقفتها على الحنفية ، وكانت من الدور الحسنة .

وقد تلاشت هذه المدرسة ، وصارت طول الأيام مغلوقة لا تفتح الا قليلا ، فانها فى زقاق لا يسكنه الا اليهود ومن يقرب منهم فى النسب .

المدرسة القطبية

هذه المدرسة فى أول حارة زويلة برحبة كوكاى . عرفت بالست الجليلة الكبرى عصمة الدين مؤنسة خاتون — المعروفة بدار اقبال العلائى — ابنة الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، وشقيقة الملك الأفضل قطب الدين أحمد واليه نسبت . وكانت ولادتها فى سنة ثلاث وستمائة ، ووفاتها ليلة الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ثلاث وتسعين وستمائة .

وكانت قد سمعت الحديث ، وخرَّج لها الحافظ أبو العباس أحمد بن محمد الظاهرى أحاديث ثمانيات حدثت بها . وكانت عاقلة دينة فصيحة ، لها أدب وصدقات كثيرة ، وتركت مالا جزيلا ، وأوصت ببناء مدرسة يجعل فيها فقهاء وقراء ، ويشترى لها وقف يغل . فبنيت هذه المدرسة ، وجعل فيها درس للشافعية ودرس للحنفية ، وقراء . وهى الى اليوم عامرة .

المدرسة الخروبية

هذه المدرسة على شاطىء النيل من مدينة مصر . أنشأها تاج الدين محمد بن صلاح الدين أحمد بن محمد بن على الخروبى ، لما أنشأ بيتا كبيرا مقابل بيت أخيه عز الدين قبليه على شاطىء النيل ، وجعل فيه هذه المدرسة . وهى ألطف من مدرسة أخيه ، وبجنبها مكتب سبيل ، ووقف عليها أوقافا ، وجعل بها مدرس حديث فقط ، ومات بمكة فى آخر المحرم سنة خمس وثمانين وسبعمائة .

مدرسة المحلى

هذه المدرسة على شاطىء النيــل ، داخل صناعة التمر ، ظاهر مدينة مصر . أنشــأها رئيس التجار برهان الدين ابراهيم بن عمر بن على المحلى ابن بنت العلامة شمس الدين محمد ابن اللبان ، وينتمى فى نسبه الى طلحة بن عبيد الله ، أحد العشرة رضى الله عنهم ، وجعل هذه المدرسة بجوار داره التى عمرها فى مدة ســبع سنين ، وأنفق فى بنائها زيادة على * خمســين ألف دينار ، وجعل بجوارها مكتب سبيل ، لكن لم يجعل بها مدرسا ولا طلبة .

وتوفى ثانى عشرى ربيع الأول سنة ست وثمانمائة عن مال عظيم ، أخذ منــه السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق مائــة ألف دينار ، وكان مولده سنة خمس وأربعين وسبعمائة ، ولم يكن مشكور السيرة فى الديانة ، وله من المآثر تجديد جامع عمرو بن العاص ، فانه كان قد تداعى الى السقوط ، فقام بعمارته حتى عاد قريبا مما كان عليه .. شكر الله له ذلك .

المدرسة الفارقانية

هذه المدرسة بابها شارع فى سويقة حارة الوزيرية من القاهرة . فتحت فى يوم الاثنين رابع جمــادى الأولى ســنة ست وســبعين وستمائة ، وبها درس للطائفة الشافعية ، ودرس للطائفة الحنفية .

أنشأها الأمير شــمس الدين آق ســنقر الفارقانى السلاحدار . كان مملوكا للأميــر نجم الدين أمير حاجب ، ثم انتقل الى الملك الظاهر بيبرس ، فترقى عنده فى الخدم حتى صار أحد الأمراء الأكابر ، وولاه الأستادارية ، وناب عنه بديار مصر مدة غيبته ، وقدمه على العساكر غير مرة ، وفتح له بلاد النوبة وكان وسيما جسيما ، شجاعا مقداما حازما ، صاحب دراية بالأمور وخبرة بالأحوال والتصرفات ، مدبرا للدول ، كثير البر والصدقة

ولما مات الملك الظاهر ، وقام من بعده فى ملك مصر ابنه الملك السعيد بركة قان ، ولاه نيابة السلطنة بديار مصر بعد موت الأمير بدر الدين بيلبك الخازندار ، فأظهر الحزم ، وضم اليــه طائفــة : منهم شمس الدين أقــوش ، وقطليجــا الرومى ، وســيف الدين قليــج البغدادى ، وسيف الدين بيجو البغــدادى ، وسيف الدين شعبان أمير شــكار ، وبكتمر السلاحدار .

وكانت الخاصــكية تكرهه ، فاتفقــوا مع مماليك بيلبك الخازندار على القبض عليه ، وتحدثوا مع الملك السعيد فى ذلك ، ومازالوا به حتى قبضوا عليه بمساعدة الأمير ســيف الدين كوندك الساقى لهم ، وكان قد ربى مع السعيد فى المكتب ، فلم يشعر وهو قاعد بباب القلة من القلعة ، الا وقد سحب وضرب وتنفت لحيته وجر — وقد ارتكب فى اهانتــه أمر شنيع — الى البرج فسجن به ليالى قليلة ، ثم أخرج منه ميتا فى أثناء سنة ست وســبعين وستمائة ، وجهل قبره .

(*) ص٣٦٨ جـ٢ ، ط. بولاق .

المدرسة المهذبية

هذه المدرسة خارج باب زويلة ، من خط حارة حلب ، بجوار حمام قسارى . بناها الحكيم مهذب الدين أبو سعيد محمد بن علم الدين بن أبى الوحش بن أبى الخير بن أبى سليمان بن أبى حليقة ، رئيس الأطباء

كان جده الرشيد أبو الوحش نصرانيا متقدما فى صناعة الطب ، فأسلم ابنه علم الدين فى حياته ، وكان لا يولد له ولد فيعيش ، فرأت أمه ، وهى حامل به ، قائلا يقول : هيئوا له حلقة فضة قد تصدق بوزنها ، وساعة يوضع من بطن أمه تثقب أذنه وتوضع فيها الحلقة ، ففعلت ذلك فعاش ، فعاهدت أمه أباه ألا يقلعها من أذنه ، فكبر وجاءته أولاد وكلهم يموت ، فولد له ابنه مهذب الدين أبو سعيد ، فعمل له حلقة فعاش .

وكان سبب اشتهاره بأبى حليقة : أن الملك الكامل محمد بن العادل أمر بعض خدامه أن يستدعى بالرشيد الطبيب من الباب — وكان جماعة من الأطباء بالباب — فقال الخادم : من هو منهم ؟

فقال السلطان : أبو حليقة .

فخرج فاستدعاه بذلك ، فاشتهر بهذا الاسم . ومات الرشيد فى سنة ست وسبعين وستمائة .

المدرسة الخروبية

هذه المدرسة بظاهر مدينة مصر ، تجاه المقياس بخط كرسى الجسر . أنشأها كبير الخرابية بدر الدين محمد بن محمد بن على الخروبى — بفتح الخاء المعجمة ، وتشديد الراء المهملة وضمها ، ثم واو ساكنة بعدها باء موحدة ، ثم ياء آخر الحروف — التاجر فى مطابخ السكر وفى غيرها بعد سنة خمسين وسبعمائة

وجعل مدرس الفقه بها الشيخ بهاء الدين عبد الله بن عبد الرحمن بن عقيل ، والمعيد الشيخ سراج الدين عمر البلقينى . ومات سنة اثنتين وستين وسبعمائة .

وأنشأ أيضا ربعين بخط دار النحاس من مصر على شاطىء النيل ، وربعين مقابل المقياس بالقرب من مدرسته .

ولبدر الدين هذا أخ من أبيه أسن منه ، يقال له صلاح الدين أحمد بن محمد بن على الخروبى ، عاش بعد أخيه ، وأنجب فى أولاده وأدركت لهم أولادا نجباء وكان أولا قليل المال ، ثم تمول . أنشأ تربة كبيرة بالقرافة ، فيما بين تربة الامام الشافعى وتربة الليث بن سعد ، مقابل السروتين وجددها حفيده نور الدين على بن عز الدين محمد بن صلاح الدين وأضاف اليها مطهرة حسنة ، ومات سنة تسع وستين وسبعمائة

وشرط بدر الدين فى مدرسته ألا يلى بها أحد من العجم وظيفة * من الوظائف ، فقال فى كل وظيفة منها : ويكون من العرب دون العجم . وكانت له مكارم ، جهز مرة ابن عقيل الى الحج بنحو خمسمائة دينار .

(*) ص٣٦٩ جـ٢ ، طـ بولاق .

المدرسة الخروبية

هذه المدرســة بخط الشــون ، قبلى دار النحاس من ظاهر مدينــة مصر أنشأها عز الدين محمد بن صلاح الدين أحمد بن محمد ابن على الخروبى ، وهى أكبر من مدرسة عمه بدر الدين . الا أنه مات سنة ست وســبعين وسبعمائة ، قبــل استيفــاء ما أراد أن يجعل فيها ، فليس لها مدرس ولا طلبة ، ومولده سنة ست عشرة وسبعمائة ، ونشأ فى دنيــا عريضة . رحمه الله تعالى .

المدرسة الصاحبية البهائية

هذه المدرسة كانت بزقاق القناديل من مدينة مصر ، قرب الجامع العتيق أنشأها الوزير الصاحب بهاء الدين على بن محمد بن سليم ابن حنا فى سنة أربع وخمسين وستمائة

وكان اذ ذاك زقاق القناديل أعمر أخطاط مصر ، وانما قيل له زقاق القناديل من أجل أنه كان سكن الأشراف ، وكانت أبواب الدور يعلق عــلى كل باب منهــا قنــديل ... قال القضاعى : ويقال انه كان به مائة قنديل توقد كل ليلة على أبواب الأكابر .

وابن حنا هذا هو على بن محمد بن سليم — بفتح السين المهملة وكسر اللام ، ثم ياء آخر الحروف بعدها ميم — ابن حنا — بحاء مهملة مكسورة ، ثم نون مشددة مفتــوحة بعدها ألف — الوزير الصاحب بهاء الدين . ولد بمصر فى سنة ثلاث وستمائة ، وتنقلت به الأحوال فى كتابة الدواوين الى أن ولى المناصب الجليلة ، واشتهرت كفايته ، وعرفت فى الدولة نهضته ودرايته .

فاستوزره السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ، فى ثامن شهر ربيع الأول سنة تسع وخمسين وستمائة ، بعد القبض على الصــاحب زين الدين يعقــوب بن الزبير ، وفوض اليه تدبير المملكة وأمور الدولة كلها ، فنزل من قلعة الجبل بخلع الوزارة — ومعه الأمير سيف الدين بلبان الرومى الدوادار ، وجميع الأعيان والأكابر — الى داره .

واستبد بجميع التصرفات ، وأظهر عن حزم وعزم وجودة رأى . وقام بأعباء الدولة ، من ولايات العمــال وعزلهم ، من غير مشــاورة السلطان ، ولا اعتراض أحد عليه فصار مرجع جميع الأمور ، ومصدرها عنه ، ومنشأ ولايات الخطط والأعمال من قلمه ، وزوالها عن أربابها لا يصدر الا من قبله . وما زال على ذلك طول الأيام الظاهرية .

فلما قام الملك السعيد بركة خان بأمر المملكة بعد موت أبيه الملك الظاهر ، أقره على ما كان عليه فى حياة والده ، فدبر الأمور ، وساس الأحوال وما تعرض له أحد بعــداوة ولا سوء ، مع كثرة من كان يســاويه من الأمراء وغيرهم ، الا وصده الله عنه ، ولم يجد ما يتعلق به عليه ، ولا ما يبلغ به مقصوده منه .

وكان عطاؤه واسعا ، وصلاته وكلفه للأمراء والأعيان ، ومن يلوذ به ويتعلق بخدمته ، تخرج عن الحد فى الكثرة ، وتتجــاوز القــدر فى السعة ... مع حسن ظن بالفقراء ، وصــدق العقيدة فى أهل الخير والصــلاح ، والقيام

بمعونتهم ، وتفقد أحوالهم ، وقضاء أشغالهم ، والمبادرة الى امتثال أوامرهم ، والعفة عن الأموال — حتى انه لم يقبل من أحد فى وزارته هدية ، الا أن تكون هدية فقير أو شيخ معتقد يتبرك بما يصل من أثره — وكثرة الصدقات فى السر والعلانية .

وكان يستعين على ما التزمه من المبرات ولزمه من الكلف بالمتاجر ، وقد مدحه عدة من الناس ، فقبل مديحهم وأجزل جوائزهم . وما أحسن قول الرشيد الفارقى فيه :

وقائل قال لى نبه لنا عمرا
فقلت ان عليا قد تنبه لى

مالى اذا كنت محتاجا الى عمر
من حاجة فليم حسبى انتباه على

وقول سعد الدين بن مروان الفارقى فى كتاب « الدرج » المختص به أيضا .

يمم عليا فهو بحر الندى
وناده فى المضلع المعضل

فرفده بحر على مجدب
ووفده معض الى مفصل

يسرع ان سيل نداه وهل
أسرع من سيل أتى من على

الا أنه أحدث فى وزارته حوادث عظيمة ، وقاس أراضى الأملاك بمصر والقاهرة ، وأخذ عليها مالا ، وصادر أرباب الأموال وعاقبهم حتى مات كثير منهم تحت العقوبة ، واستخرج جوالى الذمة مضاعفة .

ورزىء بفقد ولديه : الصاحب فخر الدين محمد ، والصاحب زين الدين . فعوضه الله عنهما بأولادهما ، فما منهم الا نجيب صدر * رئيس فاضل مذكور . وما مات حتى صار جد جد ، وهو ملىء المكانة وافر الحرمة ، فى ليلة الجمعة مستهل ذى الحجة سنة سبع وسبعين وستمائة ، ودفن بتربته من قرافة مصر .

ووزر من بعده الصاحب برهان الدين الخصر بن حسن بن على السنجارى ، وكان بينه وبين ابن حنا عداوة ظاهرة وباطنة ، وحقود بارزة وكامنة . فأوقع الحوطة على الصاحب تاج الدين محمد بن حنا بدمشق ، وكان مع الملك السعيد بها ، وأخذ خطه بمائة ألف دينار ، وجهزه على البريد الى مصر ليستخرج منه ومن أخيه زين الدين أحمد ، ابن عمه عز الدين تكملة ثلثمائة ألف دينار ، وأحيط بأسبابه ومن يلوذ به من أصحابه ومعارفه وغلمانه ، وطولبوا بالمال .

وأول من درس بهذه المدرسة الصاحب فخر الدين محمد ، ابن بانيها الوزير الصاحب بهاء الدين ، الى أن مات يوم الاثنين حادى عشرى شعبان سنة ثمان وستين وستمائة .

فوليها من بعده ابنه محيى الدين أحمد بن محمد الى أن توفى يوم الأحد ثامن شعبان سنة اثنتين وسبعين وستمائة فدرس فيها بعده الصاحب زين الدين أحمد بن الصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين الى أن مات فى يوم الأربعاء سابع صفر سنة أربع وسبعمائة . فدرس بها ولده الصاحب شرف الدين .

(*) ص٢٧٠ جـ٢ ، ط.بولاق .

وتوارثها أبناء الصاحب ، يلون نظرها وتدريسها ، الصاحب بهاء الدين .
الى أن كان آخرهم صاحبنا الرئيس شمس الدين محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن الصاحب بهاء الدين ... وليها بعد أبيه عز الدين ، ووليها عز الدين بعد بدر الدين أحمد بن محمد بن محمد بن الصاحب بهاء الدين .

فلما مات صاحبنا شمس الدين محمد بن الصاحب ، لليلة بقيت من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة وثمانمائة ، وضع بعض نواب القضاة يده على ما بقى لها من وقف .

وأقامت هذه المدرسة مدة أعوام معطلة من ذكر الله واقام الصلاة ، لا يأويها أحد لخراب ما حولها ، وبها شخص يبيت بها كى لا يسرق ما بها من أبواب ورخام .

وكان لها خزانة كتب جليلة ، فنقلها شمس الدين محمد بن الصاحب ، وصارت تحت يده الى أن مات . فتفرقت فى أيدى الناس ، وكان قد عزم على نقلها الى شاطىء النيل بمصر ، فمات قبل ذلك .

ولما كان فى سنة اثنتى عشرة وثمانمائة ، أخذ الملك الناصر فرج بن برقوق عمد الرخام التى كانت بهذه المدرسة — وكانت كثيرة العدد . جليله القدر — وعمل بدلها دعائم تحمل السقوف . الى أن كانت أيام الملك المؤيد شيخ ، وولى الأمير تاج الدين الشوبكى الدمشقى ولاية القاهرة ومصر وحسبة البلدين وشد العمائر السلطانية . فهدم هذه المدرسة فى أخريات سنة سبع عشرة وأوائل سنة ثمانى عشره وثمانمائة .

وكانت من أجل مدارس الدنيا ، وأعظم مدرسة بمصر يتنافس الناس من طلبة العلم فى النزول بها ، ويتشاحنون فى سكنى بيوتها ، حتى يصير البيت الواحد من بيوتها يسكن فيه الاثنان من طلبة العلم والثلاثة ، ثم تلاشى أمرها حتى هدمت ، وسيجهل عن قريب موضعها . ولله عاقبة الأمور .

المدرسة الصاحبية

هذه المدرسة بالقاهرة فى سويقة الصاحب . كان موضعها من جملة دار الوزير يعقوب بن كلس ، ومن جملة دار الديباج أنشأها الصاحب صفى الدين عبد الله بن على بن شكر ، وجعلها وقفا على المالكية ، وبها درس نحو وخزانة كتب ، وما زالت بيد أولاده .

فلما كان فى شعبان سة ثمان وخمسين وسبعمائة ، جدد عمارتها القاضى علم الدين ابراهيم بن عبد اللطيف بن ابراهيم — المعروف بابن الزبير — ناظر الدولة فى أيام الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون ، واستجد فيها منبرا ، فصار يصلى بها الجمعة الى يومنا هذا ، ولم يكن قبل ذلك بها منبر ، ولا تصلى فيها الجمعة

« عبد الله بن على بن الحسين » بن عبد الخالق بن الحسين بن الحسن بن منصور بن ابراهيم بن عمار بن منصور بن على ، صفى الدين أبو محمد الشيبى ، الدميرى المالكى — المعروف بابن شكر — ولد بناحة دميرة ، احدى قرى مصر البحرية ، فى تاسع صفر سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، ومات أبوه ،

فتزوجت أمه بالقاضي الوزير الأعز فخر الدين مقدام ، ابن القاضي الأجل أبي العباس أحمد ابن شكر المالكي ، فرباه ، ونوه باسمه لأنه كان ابن عمه ، فعرف به وقيل له ابن شكر .

وسمع صفي الدين من الفقيه أبي الظاهر اسماعيل بن مكي بن عوف ، وأبي الطيب عبد المنعم بن يحيي وغيره ، وحدث بالقاهرة ودمشق ، وتفقه على مذهب مالك ، وبرع فيه ، وصنف كتابا في الفقه كان كل من حفظه نال منه حظا وافرا ، وقصد بذلك أن يتشبه بالوزير عون الدين بن هبيرة .

كانت بداية أمره أنه لما سلم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أمر الأسطول لأخيه الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، وأفرد له من الأبواب الديوانية الزكاة بمصر ، والحبس الجيوشي مالبرين ، والنطرون ، والخراج وما معه من ثمن القرظ ، وساحل السنط ، والمراكب الديوانية ، واسنا وطنبدى استحدم العادل في مباشرة ديوان هذه المعاملة الصفي بن شكر هذا ، وكان ذلك * في سنة سبع وثمانين وخمسمائة .

ومن حينئذ اشتهر ذكره ، وتخصص بالملك العادل . فلما استقل بمملكة مصر ، في سنة ست وتسعين وخمسمائة ، عظم قدره ، ثم استوزره بعد الصيعة بن النجار ، فحل عنده محل الوزراء الكبار والعلماء المشاورين ، وباشر الوزارة بسطوة وجبروت وتعاظم ، وصادر كتاب الدولة ، واستصفى أموالهم . ففر منه القاضي الأشرف ابن القاضي الفاضل الى بغداد ، واستشفع بالخليفة الناصر ، وأحضر كتابه الى الملك العادل يشفع فيه . وهرب منه القاضي علم الدين اسماعيل بن أبي الحجاج صاحب ديوان الجيش ، والقاضي الأسعد أسعد بن مماتي صاحب ديوان المال ، والتجآ الى الملك الظاهر بحلب ، فأقاما عنده حتى ماتا .

وصادر بني حمدان ، وبني الحباب ، وبني الجليس ، وأكابر الكتاب ... والسلطان لا يعارضه في شيء . ومع ذلك فكان يكثر التغضب على السلطان ، ويتجنى عليه وهو يحتمله ، الى أن غضب في سنة سبع وستمائة ، وحلف أنه ما بقي يخدم . فلم يحتمله ، وولى الوزارة عوضا عنه القاضي الأعز فخر الدين مقدام بن شكر ، وأخرجه من مصر بجميع أمواله ، وحرمه وغلمانه ، وكان نقله على ثلاثين جملا ، وأخذ أعداؤه في اعراء السلطان به ، وحسنوا له أن يأخذ ماله ، فأبى عليهم ، ولم يأخذ منه شيئا

وصار الى آمد ، فأقام بها عند ابن أرتق الى أن مات الملك العادل في سنة خمسين وستمائة فطلبه الملك الكامل محمد ابن الملك العادل لما استبد بسلطنة ديار مصر بعد أبيه ، وهو في نوبة قتال الفرنج على دمياط ، حين رأى أن الضرورة داعية لحضوره بعدما كان يعاديه . فقدم عليه في ذي القعدة منها ، وهو بالمنزلة العادلية قريبا من دمياط .

فتلقاه وأكرمه ، وحادثه فيما نزل به من موت أبيه ، ومحاربة الفرنج ، ومخالفة الأمير عماد الدين أحمد بن المشطوب ، واضطراب أرض مصر بثورة العربان وكثرة خلافهم .

(*) ص٢٧١ جـ٢ ، ط.بولاق .

فشجعه ، وتكفل له بتحصيل المال وتدبير الأمور . وسار الى القاهرة ، فوضع يده فى مصادرات أرباب الأموال بمصر والقاهرة من الكتاب والتجار ، وقرر على الأملاك مالا ، وأحدث حوادث كثيرة ، وجمع مالا عظيما أمد به السلطان .

فكثر تمكنه منه ، وقويت يده ، وتوفرت مهابته ... بحيث انه لما انقضت نوبة دمياط ، وعاد الملك الكامل الى قلعة الجبل ، كان ينزل اليه ، ويجلس عنده بمنظرته التى كانت على الخليج ، ويتحدث معه فى مهمات الدولة . ولم يزل على ذلك الى أن مات بالقاهرة ، وهو وزير ، فى يوم الجمعة ثامن شعبان سنة اثنتين وعشرين وستمائة

وكان بعيد الغور ، جماعا للمال ضابطا له من الانفاق فى غير واجب قد ملأ هيبة الصدور ، وانقاد له على الرغم والرضا الجمهور ، وأخمد جمرات الرجال وأضرم رمادا لم يخطر ايقاده على بال . وبلغ عند الملك الكامل بحيث انه بعث اليه بابنيه الملك الصالح نجم الدين أيوب والملك العادل أبى بكر ، ليزوراه فى يوم عيد ، فقاما على رأسه قياما ، وأنشد زكى الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن وهيب القوصى قصيدة ، زاد فيها حين رأى الملكين قياما على رأسه :

لو لم تقم لله حق قيامه
ما كنت تقعد والملوك قيام

وقطع فى وزارته الأرزاق ، وكانت جملتها أربعمائة ألف دينار فى السنة ، وتسارع أرباب الحوائج والأطماع ومن كان يخافه الى بابه ، وملأوا طرقاته ... وهو يهينهم ، ولا يحفل بشيخ منهم وهو عالم ، وأوقع بالرؤساء وأرباب البيوت ، حتى استأصل شأفتهم عن آخرهم ، وقدم الأراذل فى مناصبهم .

وكان جلدا قويا . حل به مرة دوسنطاريا قوية وأزمنت ، فيئس منه الأطباء ، وعندما اشتد به الوجع ، وأشرف على الهلاك ، استدعى بعشرة من وجوه الكتاب كانوا فى حبسه ، وقال « أنتم فى راحة وأنا فى الألم ... كلا والله ! واستحضر المعاصير وآلات العذاب وعذبهم ، فصاروا يصرخون من العذاب ، وهو يصرخ من الألم طول الليل الى الصبح ، وبعد ثلاثة أيام ركب .

وكان يقول كثيرا « لم يبق فى قلبى حسرة الا كون البيسانى لم تتمرغ شيبته على عتباتى — يعنى القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى فانه مات قبل وزارته — وكان درى اللون تعلوه حمرة ، ومع ذلك فكان طلق المحيا ، حلو اللسان ، حسن الهيئة ، صاحب دهاء ، مع هوج وخبث ، فى طيش ورعونة مفرطة ، وحقد لا تخبو ناره ، ينتقم ويظن أنه لم ينتقم فيعود .

وكان لا ينام عن عدوه ، ولا يقبل معذرة أحد ، ويتخذ الرؤساء كلهم أعداءه ، ولايرضى لعدوه بدون الهلاك والاستئصال ، ولا يرحم أحدا اذا انتقم منه ، ولا يبالى بعاقبة ، وكان له ولأهله كلمة يرونها ، ويعملون بها كما يعمل بالأقوال الالهية ، وهى « اذا كنت دقماقا فلا تكن وتدا » ، وكان الواحد منهم يعيدها فى اليوم مرات ، ويجعلها حجة عند انتقامه

وكان قد استولى على الملك العادل ظاهرا وباطنا ، ولا يمكن أحدا من الوصول اليه ...

حتى الطبيب والحاجب والفراش عليهم عيون له ، لا يتكلم أحد منهم بفضل كلمه خوفا منه . وكان أكبر أغراضه ابادة أرباب البيوت ، ومحو آثارهم ، وهدم ديارهم وتقريب الأسقاط وشراء الفقهاء ، وكان لا يأخذ من مال السلطان فلسا ولا ألف دينار ، ويظهر أمانة مفرطة ، فاذا لاح له مال عظيم احتجنه وبلغ اقطاعه في السنة مائة ألف دينار وعشرين ألف دينار .

وكان قد عمي ، فأخذ يظهر جلدا عظيما وعدم استكانة ، اذا حضر اليه الأمراء والأكابر ، وجلسوا على خوانه ، يقول قدموا اللون الفلاني للأمير فلان ، والصدر فلان ، والقاضي فلان ، وهو يبني أمورا في معرفة مكان المشار اليه برموز ومقدمات يكابر فيها دوائر الزمان

وكان يتشبه في ترسله بالقاضي الفاضل ، وفي محاضراته بالوزير عون الدين بن هبيرة حتى اشتهر عنه ذلك ولم يكن فيه أهلية هذا ، ولكنه كان من دهاة الرجال . وكان اذا لحظ شخصا لا يقنع له الا بكثرة الغنى ونهاية الرفعة ، واذا غضب على أحد لا يقنع في شأنه الا بمحو أثره من الوجود ، وكان كثيرا ما ينشد :

اذا حقرت امرأ فاحذر عداوته
من يزرع الشوك لم يحصد به عنبا

وينشد كثيرا :

تود عدوى ثم تزعم أنني
صديقك ان الرأى عنك لعازب

وأخذه مرة مرض من حمى قوية ، وحدث به النافض وهو في مجلس السلطان ينفذ الأشغال ، فما تأثر ، ولا ألقى جنبه الى الأرض حتى ذهب وهو كذلك .

وكان يتعزز على الملوك الجبابرة ، وتقف الرؤساء على بابه من نصف الليل ومعهم المشاعل والشمع ، وعند الصباح يركب فلا يراهم ولا يرونه ، لأنه اما أن يرفع رأسه الى السماء تيها ، واما أن يعرج الى طريق غير التى هم بها ، واما أن يأمر الجاندارة التى في ركابه بضرب الناس وطردهم من طريقه ، ويكون الرجل قد وقف على بابه طول الليل ، اما من أوله ، أو من نصفه ، بغلمانه ودوابه ، فيطرد عنه ولا يراه

وكان له نواب يأخذ من الناس مالا كثيرا ، ومع ذلك يهينهم اهانة مفرطة ، وعليه للصاحب في كل يوم خمسة دنانير ، منها ديناران برسم الفقاع ، وثلاثة دنانير برسم الحلوى وكسوة غلمانه ، ونفقاته عليه أيضا ، ومع ذلك اقتنى عقارا وقرى

ولما كان بعد موت الصاحب ، قدم من بغداد رسول الخليفة الظاهر — وهو محيي الدين أبو المظفر بن الجوزي — ومعه خلعة الخليفة للملك الكامل ، وخلع لأولاده ، وخلعة للصاحب صفي الدين ، فلبسها فخر الدين سليمان كاتب الانشاء

وقبض الملك الكامل على أولاده تاج الدين يوسف ، وعز الدين محمد ، وحبسهما ، وأوقع الحوطة على سائر موجوده . رحمه الله وعفا عنه .

(*) ص٣٧٢، جـ٢، طـ بولاق .

المدرسة الشريفية

هذه المدرسة بدرب كركامة ، على رأس حارة الجودرية ، من القاهرة . وقفها الأمير الكبير الشريف فخر الدين أبو نصر اسماعيل ابن حصن الدولة فخر العرب ثعلب بن يعقوب ابن مسلم بن أبى جميل دحية بن جعفر بن موسى بن ابراهيم بن اسماعيل بن جعفر بن محمد بن على بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، الجعفرى الزينبى ، أمير الحاج والزائرين ، وأحد أمراء مصر فى الدولة الأيوبية ، وتمت فى سنة اثنتى عشرة وستمائة ، وهى من مدارس الفقهاء الشافعية .

قال ابن عبد الظاهر : وجرى له فى وقفها حكاية مع الفقيه ضياء الدين بن الوراق . وذلك أن الملك العادل سيف الدين أبا بكر (يعنى ابن أيوب) لما ملك مصر — وكان قد دخلها على أنه نائب للملك المنصور محمد بن العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف ، فقوى عليه ، وقصد الاستبداد بالملك — فأحضر الناس للحلف ، وكان من جملتهم الفقيه ضياء الدين بن الوراق ، فلما شرع الناس فى الحلف ، قال الفقيه ضياء الدين : ما هذا الحلف ؟ بالأمس حلفتم للمنصور ، فان كانت تلك الأيمان باطلة فهذه باطلة ، وان كانت تلك صحيحة فهذه باطلة .

فقال الصاحب صفى الدين بن شكر للعادل : أفسد عليك الأمور هذا الفقيه — وكان الفقيه لم يحضر الى ابن شكر ولا سلم عليه — فأمر العادل بالحوطة على جميع موجود الفقيه وماله وأملاكه ، واعتقاله بالرصد مرسما عليه فيه ، لأنه كان مسجده ، فأقام مدة سنين على هذه الصورة .

فلما كان فى بعض الأيام وجد غرة من المترسمين ، فحضر الى دار الوزارة بالقاهرة . فبلغ العادل حضوره فخرج اليه ، فقال له الفقيه : اعلم والله أنى لا حاللتك ولا أبرأتك ، أنت تتقدمنى الى الله فى هذه المدة ، وأنا بعدك أطالبك بين يدى الله تعالى . وتركه وعاد الى مكانه .

فحضر الشريف فخر الدين بن ثعلب الى الملك العادل ، فوجده متألما حزينا ، فسأله فعرفه ، فقال : يامولانا ، ولم تجرد السم فى نفسك ؟

فقال : خذ كل ما وقعت الحوطة عليه ، وكل ما استخرج من أجرة أملاكه ، وطيب خاطره .

وأما الفقيه ضياء الدين ، فانه أصبح ، وحضرت اليه جماعة من الطلبة * للقراءة عليه ، فقال لهم : رأيت البارحة النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقول : يكون فرجك على يد رجل من أهل بيتى صحيح النسب .

فبينما هم فى الحديث ، واذا بغبرة ثارت من جهة القرافة ، فانكشفت عن الشريف بن ثعلب ، ومعه الموجود كله . فلما حضر عرفه الجماعة المنام ، فقال : ياسيدى اشهد علىّ أن جميع ما أملكه وقف وصدقة ، شكرا لهذه الرؤيا .

وخرج عن كلّ ما يملكه ، وكان من جملة ذلك المدرسة الشريفية لأنها كانت مسكنه ، ووقف عليها أملاكه ، وكذلك فعل فى غيرها .

(*) ص٣٧٢ جـ٢ ، ط.بولاق .

ولم يحالل الفقيه الملك العادل ، ومات الملك العادل بعد ذلك ، ومات الفقيه بعده بمدة ، ومات الشريف اسماعيل بن ثعلب بالقاهرة فى سابع عشر رجب سنة ثلاث عشرة وستمائة .

المدرسة الصالحية

هذه المدرسة بخط بين القصرين من القاهرة . كان موضعها من جملة القصر الكبير الشرقى ، فبنى فيه الملك الصالح نجم الدين أيوب هاتين المدرستين ، فابتدأ بهدم موضع
أيوب هاتين المدرستين ، فابتدأ بهدم موضع
هذه المدارس فى قطعة من القصر ، فى ثالث عشر ذى الحجة سنة تسع وثلاثين وستمائة ، ودك أساس المدارس فى رابع عشر ربيع الآخر سنة أربعين ، ورتب فيها دروسا أربعة للفقهاء المنتمين الى المذاهب الأربعة فى سنة احدى وأربعين وستمائة . وهو أول من عمل بديار مصر دروسا أربعة فى مكان .

ودخل فى هذه المدارس باب القصر المعروف بباب الزهومة ، وموضعه قاعة شيخ الحنابلة الآن ، ثم اختط ما وراء هذه المدارس فى سنة بضع وخمسين وستمائة ، وجعل حكر ذلك للمدرسة الصالحية

وأول من درس بها من الحنابلة قاضى القضاة شمس الدين أبو بكر محمد بن العماد ابراهيم ابن عبد الواحد بن على بن سرور ، المقدسى الحنبلى الصالحى .

وفى يوم السبت ثالث عشرى شوال سنة ثمان وأربعين وستمائة ، أقام الملك المعز عز الدين أيبك التركمانى ، الأمير علاء الدين أيدكين البندقدارى الصالحى فى نيابة السلطنة بديار مصر فواظب الجلوس بالمدارس الصالحية هذه مع نواب دار العدل ، وانتصب لكشف المظالم ، واستمر جلوسه بها مدة .

ثم ان الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة خان ابن الملك الظاهر بيبرس ، وقف الصاغة التى تجاهها ، وأماكن بالقاهرة وبمدينة المحلة الغربية ، وقطع أراضى جزائر بالأعمال الجيزية والأطفيحية ، على مدرسين أربعة ، عند كل مدرس معيدان وعدة طلبة ، وما يحتاج اليه من أئمة ومؤذنين وقومة وغير ذلك وثبت وقف ذلك على يد قاضى القضاة تقى الدين محمد ابن الحسين بن رزين الشافعى ، ونفذه قاضى القضاة شمس الدين أبو البركات محمد بن هبة الله بن شكر المالكى ، وذلك فى سنة سبع وسبعين وسمائة ، وهى جارية فى وقفها الى اليوم .

فلما كان فى يوم الجمعة حادى عشرى ربيع الأول سنة ثلاثين وسبعمائة ، رتب الأمير جمال الدين أقوش — المعروف بنائب الكرك — جمال الدين الغزاوى خطيبا بايوان الشافعية من هذه المدرسة ، وجعل له فى كل شهر خمسين درهما ، ووقف عليه وعلى مؤذنين وقفا جاريا ، فاستمرت الخطبة هناك الى يومنا هذا .

« قبة الصالح » : هذه القبة بجوار المدرسة الصالحية ، كان موضعها قاعة شيخ المالكية . بنتها عصمة الدين ، والدة خليل ، شجرة الدر لأجل مولاها الملك الصالح نجم الدين أيوب عندما مات — وهو على مقاتلة الفرنج بناحية المنصورة — فى ليلة النصف من شعبان سنة

سبع وأربعين وستمائة . فكتمت زوجته شجرة الدر موته خوفا من الفرنج ، ولم تعلم بذلك أحدا سوى الأمير فخر الدين بن يوسف ابن شيخ الشيوخ ، والطواشي جمال الدين محسن فقط ، فكتما موته عن كل أحد .

وبقيت أمور الدولة على حالها ، وشجرة الدر تخرج المناشير والتواقيع والكتب ، وعليها علامة بخط خادم يقال له سهيل ، فلا يشك أحد فى أنه خط السلطان . وأشاعت أن السلطان مستمر المرض ، ولا يمكن الوصول اليه ، فلم يجسر أحد أن يتفوه بموت السلطان ... الى أن أنفذت الى حصن كيفا ، وأحضرت الملك المعظم توران شاه بن الصالح .

وأما الملك الصالح فان شجرة الدر أحضرته فى حراقة من المنصورة الى قلعة الروضة ، تجاه مدينة مصر ، من غير أن يشعر به أحد الا من ائتمنته على ذلك . فوضع فى قاعة من قاعات قلعة الروضة الى يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر رجب سنة ثمان وأربعين وستمائة ، فنقل الى هذه القبة بعد ما كانت شجرة الدر قد عمرتها على ما هى عليه .

وخلعت نفسها من سلطنة مصر ، ونزلت عنها لزوجها عز الدين أيبك قبل نقله ، فنقله المعز أيبك ، ونزل ومعه الملك الأشرف موسى ابن الملك المسعود ، وسائر المماليك البحرية والجمدارية والأمراء ، من قلعة الجبل الى قلعة الروضة . وأخرج الملك الصالح فى تابوت ، وصلى عليه بعد صلاة الجمعة ، وسائر الأمراء وأهل الدولة قد لبسوا البياض حزنا عليه ، وقطع المماليك شعور رؤوسهم ، وساروا به الى هذه القبة ، فدفن ليلة السبت * .

فأصبح السلطانان ، ونزلا الى القبة ، وحضر القضاة وسائر المماليك ، وأهل الدولة وكافة الناس ، وغلقت الأسواق بالقاهرة ومصر ، وعمل عزاء للملك الصالح بين القصرين بالدفوف مدة ثلاثة أيام ، آخرها يوم الاثنين ، ووضع عند القبر سناجق السلطان وبقجته وتركاشه وقوسه ، ورتب عنده القراء على ما شرطت شجرة الدر فى كتاب وقفها ، وجعلت النظر فيها للصاحب بهاء الدين على بن حنا وذريته ، وهى بيدهم الى اليوم .

وما أحسن قول الأديب جمال الدين أبى المظفر عبد الرحمن بن أبى سعيد محمد بن محمد بن عمر بن أبى القاسم بن تخمش الواسطى — المعروف بابن السنيرة الشاعر — لما مر هو والأمير نور الدين تكريت بالقاهرة بين القصرين ، ونظر الى تربة الملك الصالح هذه وقد دفن بقاعة شيخ المالكية ، فأنشد :

بنيت لأرباب العلوم مدارسا
لتنجو بها من هول يوم المهالك

وضاقت عليك الأرض لم تلق منزلا
تحل به الا الى جنب مالك

وذلك أن هذه القبة التى فيها قبر الملك الصالح ، مجاورة لايوان الفقهاء المالكية المنتمين الى الامام مالك بن أنس رضى الله عنه ، فقصد التورية بمالك الامام المشهور ، ومالك خازن النار . أعاذنا الله منها .

(*) ص٣٧٤ جـ٢ ، ط . بولاق .

المدرسة الكاملية

هـذه المدرسة بخط بين القصرين من القاهرة ، وتعرف بدار الحديث الكاملية ، أنشأها السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى بن مروان ، فى سنة اثنتين وعشرين وستمائة ، وهى ثانى دار عملت للحديث .

فان أول من بنى دارا على وجه الأرض الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى بدمشق . ثم بنى الكامل هـذه الدار ، ووقفها على المشتغلين بالحديث النبوى ، ثم من بعدهم على الفقهاء الشافعية ، ووقف عليها الربع الذى بجوارها على باب الخرنشف ، ويمتد الى الدرب المقابل للجامع الأقمر

وهذا الربع من انشاء الملك الكامل ، وكان موضعه من جملة القصر الغربى ، ثم صار موضعا يسكنه القماحون . وكان موضع المدرسة سوقا للرقيق ، ودارا تعرف بابن كستول .

وأول من ولى تدريس الكاملية : الحافظ أبو الحطاب عمر بن الحسن بن على بن دحية ، ثم أخوه أبو عمرو عثمان بن الحسن بن على ابن دحية ، ثم الحافظ عبد العظيم المنذرى ، ثم الرشيد العطار

وما برحت بيد أعيان الفقهاء . الى أن كانت الحوادث والمحن منذ سنة ست وثمانمائة فتلاشت كما تلاشى غيرها ، وولى تدريسها صبى لا يشارك الأناسى الا بالصورة ، ولا يمتاز عن البهيمة الا بالنطق ، واستمر فيها دهرا لا يدرس بها ، حتى نسيت أو كادت تنسى دروسها . ولا حول ولا قوة الا بالله .

« الملك الكامل » ناصر الدين أبو المعالى محمد ابن الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمد بن نجم الدين أيوب بن شادى بن مروان الكردى الأيوبى ، خامس ملوك بنى أيوب الأكراد بديار مصر ، وولد فى خامس عشرى ربيع الأول سنة ست وسبعين وخمسمائة ، وخلف أباه الملك العادل على بلاد الشرق .

فلما استولى على مملكة مصر ، قدم الملك الكامل الى القاهرة فى سنة ست وتسعين وخمسمائة ، ونصبه أبوه نائبا عنه بديار مصر ، وأقطعه الشرقية ، وجعله ولى عهده ، وحلف له الأمراء ، وأسكنه قلعة الجبل ، وسكن العادل فى دار الوزارة بالقاهرة ، وصار يحكم بديار مصر مدة غيبة الملك العادل ببلاد الشام وغيرها بمفرده .

فلما مات الملك العادل ببلاد الشام ، استقل الملك الكامل بمملكة مصر فى جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة ، وهو على محاربة الفرنج بالمنزلة العادلية قريبا من دمياط ، وقد ملكوا البر الغربى ، فثبت لقتالهم مع ما حدث من الوهن بموت السلطان .

وثارت العربان بنواحى أرض مصر ، وكثر خلافهم ، واشتد ضررهم . وقام الأمير عماد الدين أحمد ابن الأمير سيف الدين أبى الحسين على بن أحمد الهكارى ، المعروف بابن المشطوب — وكان أجل الأمراء الأكابر ، وله لفيف من الأكراد الهكارية — يريد خلع

الملك الكامل ، وتمليك أخيه الملك الفائز ابراهيم بن العادل ، ووافقه على ذلك كثير من الأمراء .

فلم يجد الكامل بدا من الرحيل فى الليل جريدة ، وسار من العادلية الى أشموم طناح ونزل بها ، وأصبح العسكر بغير سلطان . فركب كل واحد هواه ، ولم يعرج واحد منهم على آخر ، وتركوا أثقالهم وسائر ما معهم . فاغتنم الفرنج الفرصة ، وعبروا الى بر دمياط ، واستولوا على جميع ما تركه المسلمون ، وكان شيئا عظيما .

وهم الملك الكامل بمفارقة أرض مصر ، ثم ان الله تعالى ثبته ، وتلاحقت به العساكر ، وبعد يومين قدم عليه أخوه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق بأشموم فاشتد عضده بأخيه ، وأخرج ابن المشطوب من العسكر الى الشام ، ثم أخرج الفائز ابراهيم الى الملوك الأيوبية بالشام والشرق يستنفرهم * لجهاد الفرنج .

وكتب الملك الكامل الى أخيه الملك الأشرف موسى شاه يستحثه على الحضور ، وصدر المكاتبة بهذه الأبيات :

يامسعدى ان كنت حقا مسعفى
فانهض بغير تلبث وتوقف
واحثث قلوصك مرقلا أو موجفا
بتجشم فى سيرها وتعسف
واطو المنازل ما استطعت ولا تنخ
الا على باب المليك الأشرف
واقر السلام عليه من عبد له
متوقع لقدومه متشوف

واذا وصلت الى حماه فقل له
عنى بحسن توصل وتلطف
ان تأت عبدك عن قليل تلقه
ما بين كل مهند ومثقف
أو تبط عن نجاده فلقاؤه
بك فى القيامة فى عراص الموقف

وجد الكامل فى قتال الفرنج ، وأمر بالنفير فى ديار مصر ، وأتته الملوك من الأطراف . فقدر الله أخذ الفرنج لدمياط ، بعدما حاصروها ستة عشر شهرا واثنين وعشرين يوما ، ووضعوا السيف فى أهلها . فرحل الكامل من أشموم ، ونزل بالمنصورة ، وبعث يستنفر الناس ، وقوى الفرنج حتى بلغت عدتهم نحو المائتى ألف راجل وعشرة آلاف فارس .

وقدم عامة أهل أرض مصر ، وأتت النجدات من البلاد الشامية وغيرها فصار المسلمون فى جمع عظيم الى الغاية ، بلغت عدة فرسانهم خاصة نحو الأربعين ألفا . وكانت بين الفريقين خطوب آلت الى وقوع الصلح ، وتسلم المسلمون مدينة دمياط فى تاسع عشرى رجب سنة ثمان عشرة وستمائة ، بعدما أقامت بيد الفرنج سنة وأحد عشر شهرا تنقص ستة أيام ، وسار الفرنج الى بلادهم .

وعاد السلطان الى قلعة الجبل ، وأخرج كثيرا من الأمراء الذين وافقوا ابن المشطوب من القاهرة الى الشام ، وفرق أخبازهم على مماليكه . ثم تخوف من أمرائه فى سنة احدى وعشرين بميلهم الى أخيه الملك المعظم ، فقبض على جماعة منهم ، وكاتب أخاه الملك الأشرف فى موافقته على المعظم . فقويت الوحشة بين

(*) ص٣٧٥ جـ٢ ، ط. بولاق .

الكامل والمعظم ، واشتد خوف الكامل من عسكره ، وهم أن يخرج من القاهرة لقتال المعظم ، فلم يحسر على ذلك .

وقدم الأشرف الى القاهرة ، فسر بذلك سرورا كثيرا ، وتحالفا على المعاضدة ، وسافر من القاهرة فمال مع المعظم فتحير الكامل فى أمره ، وبعث الى ملك الفرنج يستدعيه الى عكا ، ووعده بأن يمكنه من بلاد الساحل ، وقصد بذلك أن يشغل سر أخيه المعظم فلما بلغ ذلك المعظم خطب للسلطان جلال الدين الخوارزمى ، وبعث يستنجد به على الكامل ، وأبطل الخطبة للكامل .

فخرج الكامل من القاهرة يريد محاربته فى رمضان سنة أربع وعشرين ، وسار الى العباسة ، ثم عاد الى قلعة الجبل ، وقبض على عدة من الأمراء ومماليك أبيه لمكاتبتهم المعظم ، وأنفق فى العسكر . فاتفق موت الملك المعظم فى سلخ ذى القعدة ، وقيام ابنه الملك الناصر داود بسلطنة دمشق ، وطلبه من الكامل الموادعة ، فبعث اليه خلعة سنة وسنجقا سلطانيا ، وطلب منه أن ينزل له عن قلعة الشوبك ، فامتنع الناصر من ذلك ، فوقعت المنافرة بينهما

وعهد الملك الكامل الى ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وأركبه بشعار السلطنة ، وأنزله بدار الوزارة ، وخرج من القاهرة فى العساكر يريد دمشق ، فأخذ نابلس والقدس . فخرج الناصر داود من دمشق ومعه عمه الأشرف ، وسارا الى الكامل يطلبان منه الصلح .

فلما بلغ ذلك الكامل رحل من نابلس يريد القاهرة ، فقدمها الناصر والأشرف ، وأقام بها الناصر ، وسار الأشرف والمجاهد الى الكامل ، فأدركاه بتل العجوز ، فأكرمهما وقرر مع الأشرف انتزاع دمشق من الناصر واعطاءها للأشرف ، على أن يكون للكامل ما بين عقبة أفيق الى القاهرة ، وللأشرف من دمشق الى عقبة أفيق ، وأن يعين بجماعة من ملوك بنى أيوب .

فاتفق قدوم الملك الانبرطور الى عكا باستدعاء الملك الكامل له ، فتحير الكامل فى أمره لعجزه عن محاربته ، أخذ يلاطفه . وشرع الفرنج فى عمارة صيدا — وكانت مناصفة بين المسلمين والفرنج وسورها خراب — فلما بلغ الناصر موافقة الأشرف للكامل ، عاد من نابلس الى دمشق ، واستعد للحرب . فسار اليه الأشرف من تل العجوز ، وحاصره بدمشق .

وأقام الكامل بتل العجوز ، وقد تورط مع الفرنج ، فلم يجد بدا من اعطائهم القدس ، على ألا يجدد سوره ، وأن تبقى الصخرة والأقصى مع المسلمين ، ويكون حكم قرى القدس الى المسلمين ، وأن القرى التى فيما بين عكا ويافا وبين لد والقدس للفرنج . وانعقدت الهدنة على ذلك لمدة عشر سنين وخمسة أشهر وأربعين يوما ، أولها ثامن ربيع الأول سنة ست وعشرين .

ونودى * فى القدس بخروج المسلمين منه ، وتسليمه الى الفرنج . فكان أمرا مهولا من شدة البكاء والصراخ ، وخرجوا بأجمعهم

(*) ص٢٧٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

فصاروا الى مخيم الكامل ، وأذنوا على بابه في غير وقت الأذان . فشق عليه ذلك ، وأخذ منهم الستور وقناديل الفضة والآلات وزجرهم ، وقيل لهم امضوا حيث شئتم . فعظم على المسلمين هذا ، وكثر الانكار على الملك الكامل ، وشنعت المقالة فيه .

وعاد الانبرطور الى بلاده بعدما دخل القدس ، وكان مسيره في آخر جمادى الآخرة سنة ست وعشرين . وسير الكامل الى الآفاق بتسكين قلوب المسلمين وانزعاجهم لأخذ الفرنج القدس ، ورحل من تل العجوز يريد دمشق ، والأشرف على محاصرتها ، فجد في القتال .

واشتد الأمر على الناصر الى أن ترامى في الليل على الملك الكامل ، فأكرمه وأعاده الى قلعة دمشق ، وبعث من تسلمها منه ، وعوضه عن دمشق الكرك والشوبك والصلت والبلقاء والأغوار ونابلس وأعمال القدس ، ثم ترك الشوبك للكامل مع عدة مما ذكر .

وتسلم الكامل دمشق في أول شعبان ، وأعطاها للأشرف ، وأخذ منه ما معه من بلاد الشرق ، وهي حران والرها وسروج وغير ذلك . ثم سار الكامل ، فأخذ حماه ، وتوجه منها فقطع الفرات ، ثم سار الى جعبر والرقة ، ودخل حران والرها ، ورتب أمورها ، وأتته الرسل من ماردين وآمد والموصل وأربل وغير ذلك ، وأقيمت له الخطبة بماردين ، وبعث يستدعي عساكر الشام لقتال الخوارزمي وهو بخلاط .

ثم رحل الكامل من حران لأمور حدثت ، وسار الى مصر . فدخلها في شهر رجب سنة سبع وعشرين ، وقد تغير على ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وخلعه من ولاية العهد ، وعهد الى ابنه الملك العادل أبي بكر ، ثم سار الى الاسكندرية في سنة ثمان وعشرين ، ثم عاد الى مصر ، وحفر بحر النيل فيما بين المقياس وبر مصر ، وعمل فيه بنفسه ، واستعمل فيه الملوك من أهله والأمراء والجند . فصار الماء دائما فيما بين مصر والمقياس ، وانكشف البر فيما بين المقياس والجيزة في أيام احتراق النيل .

وخرج من القاهرة الى بلاد الشام ، في آخر جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين ، واستخلف على ديار مصر ابنه العادل ، وأسكنه قلعة الجبل ، وأخذ الصالح معه . فدخل دمشق من طريق الكرك ، وخرج منها لقتال التتر ، وجعل ابنه الصالح على مقدمته ، فسار الى حران ، فرحل التتر عن خلاط . ثم رحل الى الرها ، وسار الى آمد ونازلها حتى أخذها ، وأنعم على ابنه الصالح بحصن كيفا وبعثه اليه ، وعاد الى مصر في سنة ثلاثين ، فقبض على عدة من الأمراء .

ثم خرج في سنة احدى وثلاثين الى دمشق ، وسار منها ودخل الدربند ، وقد أعجبته كثرة عساكره ، فانه اجتمع معه ثمانية عشر طلبا لثمانية عشر ملكا ، وقال : هذه العساكر لم تجتمع لأحد من ملوك الاسلام ، ونزل على النهر الأزرق بأول بلد الروم ، وقد نزلت عساكر الروم ، وأخذت عليه رأس الدربند ومنعوه ، فتحير لقلة الأقوات عنده ، ولاختلاف ملوك بني أيوب عليه ، ورحل الى مصر وقد فسد ما بينه وبين الأشرف وغيره .

وأخذ ملك الروم الرها وحران بالسيف . فتجهز الكامل وخرج بعساكره من القاهرة فى سنة ثلاث وثلاثين ، وسار الى الرها ، ونازلها حتى أخذها وهدم قلعتها ، وأخذ حران بعد قتال شديد ، وبعث بمن كان فيها من الروم الى القاهرة فى القيود — وكانوا زيادة على ثلاثة آلاف نفس — ثم خرج الى مصر ، وعاد الى دمشق ، وسار منها الى القاهرة ، فدخلها فى سنة أربع وثلاثين .

ثم خرج فى سنة خمس وثلاثين ، ونزل على دمشق وقد امتنعت عليه ، فضايقها حتى أخذها من أخيه الملك الصالح اسماعيل ، وعوضه عنها بعلبك وبصرى وغيرهما فى تاسع عشر جمادى الأولى ، ونزل بالقلعة ، وأخذ يتجهز لأخذ حلب .

وقد نزل به زكام ، فدخل فى ابتدائه الحمام ، فاندفعت المواد الى معدته فتورم ، وثارت فيه حمى ؛ فنهاه الأطباء عن القىء ، وحذروه منه ، فلم يصبر وتقيأ ، فمات لوقته فى آخر نهار الأربعاء حادى عشرى رجب سنة خمس وثلاثين وستمائة عن ستين سنة . منها ملكه أرض مصر نحو أربعين سنة ، استبد فيها بعد موت أبيه مدة عشرين سنة وخمسة وأربعين يوما .

وكان يحب العلم وأهله ، ويؤثر مجالستهم ، وشغف بسماع الحديث النبوى وحدث ، وبنى دار الحديث الكاملية بالقاهرة وكان يناظر العلماء ، ويمتحنهم بمسائل غريبة من فقه ونحو ، فمن أجاب عنها حظى عنده وكان يبيت عنده بقلعة الجبل عدة من أهل العلم ، على أسرة بجانب سريره ، ليسامروه . وكان للعلم والأدب عنده نفاق ، فقصده الناس لذلك ، وصار يطلق الأرزاق الدارة لمن يقصده لهذا .

وكان مهابا حازما ، سديد الرأى ، حسن التدبير ، عفيفا عن الدماء وكان يباشر أمور مملكته بنفسه ، من غير اعتماد على وزير ولا غيره ؛ ولم يستوزر بعد الصاحب صفى الدين عبد الله بن على بن شكر أحدا ، وانما كان ينتدب من يختاره لتدبير الأشغال ، ويحضر عنده الدواوين ، ويحاسبهم بنفسه .

واذا ابتدأت زيادة النيل خرج ، وكشف الجسور ، ورتب الأمراء لعملها . فاذا انتهى عمل الجسور خرج ثانيا * وتفقدها بنفسه ، فان وقف فيها على خلل عاقب متوليها أشد العقوبة . فعمرت أرض مصر فى أيامه عمارة جيدة

وكان يخرج من زكوات الأموات التى تجبى من الناس سهمى الفقراء والمساكين ، ويعين مصرف ذلك لمستحقيه شرعا ، ويفرز منه معاليم الفقهاء والصلحاء . وكان يجلس كل ليلة جمعة مجلسا لأهل العلم ، فيجتمعون عنده للمناظرة . وكان كثير السياسة ، حسن المداراة ، وأقام على كل طريق خفراء لحفظ المسافرين . الا أنه كان مغرما بجمع المال ، مجتهدا فى تحصيله ، وأحدث فى البلاد حوادث سماها « الحقوق » لم تعرف قبله .

ومن شعره قوله ، رحمه الله تعالى :

اذا تحققتم ما عند صاحبكم
من الغرام فذاك القدر يكفيه

(*) ص٢٧٧ جـ٢ ، ط. بولاق .

لئتم سكنتم فؤادي وهو منزلكم
وصاحب البيت أدرى بالذى فيه

وقال له الطبيب علم الدين أبو النصر جرجس بن أبى حليقة ، فى اليوم الذى مات فيه : كيف نوم السلطان فى ليلته ؟ فأنشد :

ياخليلى خبرانى بصدق
كيف طعم الكرى فانى نسيت

ودفن أولا بقلعة دمشق ، ثم نقل الى جوار جامع بنى أمية ، وقبره هناك . رحمه الله تعالى .

المدرسة الصيرمية

هذه المدرسة من داخل باب الجملون الصغير ، بالقرب من رأس سويقة أمير الجيوش ، فيما بينها وبين الجامع الحاكمى بجوار الزيادة . بناها الأمير جمال الدين شويخ ابن صيرم ، أحد أمراء الملك الكامل محمد ابن أبى بكر بن أيوب ، وتوفى فى تاسع عشر صفر سنة ست وثلاثين وستمائة .

المدرسة المسرورية

هذه المدرسة بالقاهرة داخل درب شمس الدولة . كانت دار شمس الخواص مسرور ، أحد خدام القصر ، فجعلت مدرسة بعد وفاته بوصيته ، وأن يوقف الفندق الصغير عليها . وكان بناؤها من ثمن ضيعة بالشام كانت بيده بيعت بعد موته ، وتولى ذلك القاضى كمال الدين خضر ، ودرس فيها .

وكان مسرور ممن اختص بالسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فقدمه على حلقته ، ولم يزل مقدما الى الأيام الكاملية ، فانقطع الى الله تعالى ، ولزم داره الى أن مات ، ودفن بالقرافة الى جانب مسجده . وكان له بر واحسان ومعروف ، ومن آثاره بالقاهرة فندق يعرف اليوم بخان مسرور الصفدى ، وله ربع بالشارع .

المدرسة القوصية

هذه المدرسة بالقاهرة ، فى درب سيف الدولة ، بالقرب من درب ملوخيا . أنشأها الأمير الكردى والى قوص .

مدرسة بحارة الديلم

... ...

المدرسة الظاهرية

هذه المدرسة بالقاهرة من جملة خط بين القصرين . كان موضعها من القصر الكبير يعرف بقاعة الخيم ، وقد تقدم ذكرها فى أخبار القصر . ومما دخل فى هذه المدرسة باب الذهب المذكور فى أبواب القصر .

فلما أوقع الملك الظاهر بيبرس البندقدارى الحوطة على القصور والمناظر — كما تقدم ذكره — نزل القاضى كمال الدين طاهر ابن الفقيه نصر وكيل بيت المال ، وقوم قاعة الخيم هذه ، وابتاعها الشيخ شمس الدين محمد بن العماد ابراهيم المقدسى ، شيخ الحنابلة ومدرس

المدرسة الصالحية النجمية ، ثم باعها المذكور للسلطان ، فامر بهدمها وبناء موضعها مدرسة .

فابتدىء بعمارتها في ثاني ربيع الآخر سنة ستين وستمائة ، وفرغ منها في سنة اثنتين وستين وستمائة . ولم يقع الشروع في بنائها حتى رتب السلطان وقفها — وكان بالشام — فكتب بما رتبه الى الأمير جمال الدين بن يغمور ، وألا يستعمل فيها احدا بغير أجرة ، ولا ينقص من أجرته شيئا .

فلما كان يوم الأحد خامس صفر سنة اثنتين وستين وستمائة ، اجتمع أهل العلم بها — وقد فرغ منها — وحضر القراء ، وجلس أهل الدروس كل طائفة في ايوان : منها الشافعية بالايوان القبلي ، ومدرسهم الشيخ تقي الدين محمد بن الحسن بن رزين الحموي . والحنفية بالايوان البحري ، ومدرسهم الصدر مجد الدين عبد الرحمن بن الصاحب كمال الدين عمر بن العديم الحلبي وأهل الحديث بالايوان الشرقي ، ومدرسهم الشيخ شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياطي والقراء بالقراءات السبع بالايوان الغربي ، وشيخهم الفقيه كمال الدين المحلي وقرروا كلهم الدروس ، وناظروا في علومهم ، ثم مدت الأسمطة لهم فأكلوا ، وقام الأديب أبو الحسين الجزار فأنشد *

ألا هكذا يبنى المدارس من بنى
ومن يتعالى في الثواب وفي الثنا

لقد ظهرت للظاهر الملك همة
بها اليوم في الدارين قد بلغ المنا

تجمع فيها كل حسن مفرق
فراقت قلوبا للأنام وأعينا

ومذ جاورت قبر الشهيد فنفسه الن
فيسة منها في سرور وفي هنا

وما هي الا جنة الخلد أزلفت
له في غد فاختار تعجيلها هنا

وقال السراج الوراق أيضا قصيدة منها :

مليك له في العلم حب وأهله
فلله حب ليس فيه ملام

فشيدها للعلم مدرسة غدا
عراق اليها شيق وشآم

ولا تذكرن يوما نظامية لها
فليس يضاهي ذا النظام نظام

ولا تذكرن ملكا فبيبرس مالك
وكل مليك في يديه غلام

ولما بناها زعزعت كل بيعة
متى لاح صبح فاستقر ظلام

وقد برزت كالروض في الحسن أنبأت
بأن يديه في النوال غمام

ألم تر محرابا كأن أزاهرا
تفتح عنهن الغداة كمام

وقال الشيخ جمال الدين يوسف بن الخشاب .

قصد الملوك حماك والخلفاء
فافخر فان محلك الجوزاء

أنت الذي أمراؤه بين الورى
مثل الملوك وجنده أمراء

(*) ص٣٧٨ جـ٢ ، طـ. بولاق .

ملك تزينت الممالك باسمه
وتجملت بمديحه الفصحاء

وترفعت لعلاه خير مدارس
حلت به علماء الفضلاء

يبقى كما يبقى الزمان وملكه
باق به ولحاسديه فناء

كم للفرنج وللتتار بسابه
رسل مناها العفو والاعفاء

وطريقه لبلادهم موطوءة
وطريقهم لبلاد عذراء

دامت له الدنيا ودام مخلدا
ما أقبل الاصباح والامساء

فلما فرغ هؤلاء الثلاثه من انشادهم ، أفيضت عليهم الخلع . وكان يوما مشهودا .

وجعل بها خزانة كتب تشتمل على أمهات الكتب فى سائر العلوم ، وبنى بجانبها مكتبا لتعليم أيتام المسلمين كتاب الله تعالى وأجرى لهم الجرايات والكسوة ، أوقف عليها ربع السلطان خارج باب زويله ، فيما بين باب زويلة وباب الفرج ، ويعرف ذلك الخط اليوم به ، فيقال خط تحت الربع

وكان ربعا كبيرا لكنه خرب منه عدة دور فلم تعمر . وتحت هذا الربع عدة حوانيت هى الآن من أجل الأسواق ، والناس فى سكناها رغبة عظيمة ، ويتنافسون فيها تنافسا يرتفعون فيه الى الحكام .

وهذه المدرسة من أجل مدارس القاهرة ، الا أنها قد تقادم عهدها فرثت ، وبها الى الآن بقية صالحة ، ونظرها تارة يكون بيد الحنفية ، وأحيانا بيد الشافعية ، ويتنازع فى نظرها أولاد الظاهر فيدفعون عنه والله عاقبة الأمور .

المدرسة المنصورية

هذه المدرسة من داخل باب المارستان الكبير المنصورى بخط بين القصرين بالقاهرة . أنشأها هى والقبة * التى تجاهها والمارستان الملك المنصور قلاوون الألفى الصالحى ، على يد الأمير علم الدين سنجر الشجاعى ، ورتب بها دروسا أربعة لطوائف الفقهاء الأربعة ، ودرسا للطب ، ورتب بالقبة درسا للحديث النبوى ، ودرسا لتفسير القرآن الكريم وميعادا وكانت هذه المدارس لا يليها الا أجل الفقهاء المعتبرين ، ثم هى اليوم كما قيل .

تصدر للتدريس كل مهوس
بليد يسمى بالفقيه المدرس

فحق لأهل العلم أن يتمثلوا
ببيت قديم شاع فى كل مجلس

لقد هزلت حتى بدا من هزالها
كلاها وحتى سامها كل مفلس

« القبة المنصورية » هذه القبة تجاه المدرسة المنصورية ، وهما جميعا من داخل باب المارستان المنصورى ، وهى من أعظم المبانى الملوكية وأجلها قدرا وبها قبر نضمن الملك المنصور سيف الدين قلاوون ، وابنه الملك الناصر محمد بن قلاوون ، والملك الصالح عماد الدين اسماعيل بن محمد بن قلاوون .

(*) ص٣٧٩ ج٣ ، ط. بولاق .

وبها قاعة جليلة فى وسطها فسقية يصل اليها الماء من فوارة بديعة الزى ، وسائر هذه القاعة مفروش بالرخام الملون . وهذه القاعة معدة لاقامة الخدام الملوكية ، الذين يعرفون اليوم فى الدولة التركية بالطواشية : واحدهم « طواشى » ، وهذه لفظة تركية أصلها بلغتهم « طابوشى » ، فتلاعبت بها العامة وقالت : طواشى ، وهو الخصى .

ولهؤلاء الخدام فى كل يوم ما يكفيهم من الخبز النقى واللحم المطبوخ ، وفى كل شهر من المعاليم الوافرة ما فيه غنية لهم . وأدركتهم ولهم حرمة وافرة ، وكلمة نافذة ، وجانب مرعى ، ويعد شيخهم من أعيان الناس يجلس على مرتبة ، وبقية الخدام فى مجالسهم لا يبرحون فى عبادة .

وكان يستقر فى وظائف هذه الخدمة أكابر خدام السلطان ، ويقيمون عنهم نوابا يواظبون الاقامة بالقبة ، ويرون — مع سعة أحوالهم ، وكثرة أموالهم — من تمام فخرهم وكمال سيادتهم ، انتماءهم الى خدمة القبة المنصورية ، ثم تلاشى الحال بالنسبة الى ما كان ، والخدام بهذه القاعة الى اليوم .

وقصد الملوك باقامة الخدام فى هذه القاعة ، التى يتوصل الى القبة منها ، اقامة ناموس الملك بعد الموت كما كان فى مدة الحياة ، وهم الى اليوم لا يمكنون أحدا من الدخول الى القبة الا من كان من أهلها .

ولله در يحيى بن حكم البكرى الجيانى المغربى — الملقب بالغزال لجماله — حيث يقول :

أرى أهل الثراء اذا توفوا
بنوا تلك المقابر بالصخور

أبوا الا مباهاة وتيها
على الفقراء حتى فى القبور

وفى هذه القبة دروس للفقهاء على المذاهب الأربعة ، وتعرف بدروس وقف الصالح . وذلك أن الملك الصالح عماد الدين اسماعيل ابن محمد بن قلاوون ، قصد عمارة مدرسة ، فاخترمته المنية دون بلوغ غرضه . فقام الأمير أرغون العلائى ، زوج أمه ، فى وقف قرية ، تعرف بدهمشا الحمام من الأعمال الشرقية ، عن أم الملك الصالح . فأثبته بطريق الوكالة عنها ، ورتب ما كان الملك الصالح اسماعيل قرره فى حياته لو أنشأ مدرسة ، وجعل ذلك الأمير أرغون مرتبا لمن يقوم به فى القبة المنصورية . وهو وقف جليل يتحصل منه فى كل سنة نحو الأربعة آلاف دينار ذهبا .

ثم لما كانت الحوادث ، وخربت الناحية المذكورة ، تلاشى أمر وقف الصالح ، وفيه الى اليوم بقية . وكان لا يلى تدريس دروسه الا قضاة القضاة ، فوليه الآن الصبيان ، ومن لا يؤهل — لو كان الانصاف — له .

وفى هذه القبة أيضا قراء يتناوبون القراءة بالشبابيك المطلة على الشارع طول الليل والنهار ، وهم من جهة ثلاثة أوقاف : فطائفة من جهة وقف الملك الصالح اسماعيل ، وطائفة من جهة الوقف السيفى ، وهو منسوب الى الملك المنصور سيف الدين أبى بكر ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون .

وبهذه القبة امام راتب يصلى بالخدام والقراء وغيرهم الصلوات الخمس ، ويفتح له باب فيما بين القبة والمحرب يدخل منه من يصلى من الناس ، ثم يغلق بعد انقضاء الصلاة .

وبهذه القبة خزانة جليلة . كان فيها عدة أحمال من الكتب فى أنواع العلوم ، مما وقفه الملك المنصور وغيره ، وقد ذهب معظم هذه الكتب ، وتفرق فى أيدى الناس .

وفى هذه القبة خزانة بها ثياب المقبورين بها ، ولهم فراش معلوم بمعلوم لتعهدهم ، ويوضع ما يتحصل من مال أوقاف المارستان بهذه القبة تحت أيدى الخدام

وكانت العادة أنه اذا أمّر السلطان آحدا من أمراء مصر والشام ، فانه ينزل من قلعة الجبل وعليه التشريف والشربوش ، وتوقد له القاهرة ، فيمر الى المدرسة الصالحية بين القصرين ، وعمل ذلك من عهد سلطنة المعز أيبك ومن بعده . فنقل ذلك الى القبة المنصورية ، وصار الأمير يحلف عند القبر المذكور ويحضر تحليفه * صاحب الحجاب ، وتمد أسمطة جليلة بهذه القبة ، ثم ينصرف الأمير ، ويجلس له فى طول شارع القاهرة الى القلعة أهل الأغانى لتزفه فى نزوله وصعوده . وكان هذا من جملة متنزهات القاهرة ، وقد بطل ذلك منذ انقرضت دولة بنى قلاوون .

ومن جملة أخبار هذه القبة أنه لما كان فى يوم الخميس مستهل المحرم سنة تسعين وستمائة ، بعث الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون بجملة مال تصدق به فى هذه القبة ، ثم أمر بنقل أبيه من القلعة

فخرج سائر الأمراء ، ونائب السلطنة الأمير بيدرا بدر الدين ، والوزير الصاحب شمس الدين محمد بن السلعوس التنوخى وحضروا بعد صلاة العشاء الآخرة ، ومشوا بأجمعهم قدام تابوت الملك المنصور الى الجامع الأزهر ، وحضر فيه القضاة ومشايخ الصوفية . فتقدم قاضى القضاة تقى الدين بن دقيق العيد ، وصلى على الجنازة ، وخرج الجمع أمامها الى القبة المنصورية حتى دفن فيها ، وذلك فى ليلة الجمعة ثانى المحرم ، وقيل عاشره.

ثم عاد الوزير والنائب من الدهليز خارج القاهرة الى القبة المنصورية ، لعمل مجتمع بسبب قراءة ختمة كريمة ، فى ليلة الجمعة ثامن عشرى صفر منها ، وحضر المشايخ والقراء والقضاة فى جمع موفور ، وفرق فى الفقراء صدقات جزيلة ، ومدت أسمطة كثيرة ، وتفرقت الناس أطعمتها حتى امتلأت الأيدى بها ، وكانت احدى الليالى الغر ، كثر الدعاء فيها للسلطان وعساكر الاسلام بالنصر على أعداء الملة ، وحضر الملك الأشرف بكرة يوم الجمعة الى القبة المنصورية ، وفرق مالا كثيرا .

وكان الملك الأشرف قد برز يريد المسير لجهاد الفرنج ، وأخذ مدينة عكا ، فسار لذلك ، وعاد فى العشرين من شعبان — وقد فتح الله له مدينة عكا عنوة بالسيف ، وخرب أسوارها — وكان عبوره الى القاهرة من باب النصر ، وقد زينت القاهرة زينة عظيمة .

(*) ص٣٨٠ جـ٢ ، ط.بولاق .

فعندما حاذى باب المارستان ، نزل الى القبة المنصورية ، وقد غصت بالقضاة والأعيان والقراء والمشايخ والفقهاء ، فتلقوه كلهم بالدعاء حتى جلس . فأخذ القراء في القراءة ، وقام نجم الدين محمد بن فتح الدين محمد بن عبد الله بن مهلهل بن غياث بن نصر — المعروف بابن العنبرى الواعظ — وصعد منبرا نصب له ، فجلس عليه ، وافتتح ينشد قصيدة تشمل على ذكر الجهاد وما فيه من الأجر ، فلم يسعد فيها بحظ ، وذلك أنه افتتحها بقوله .

زر والديك وقف على قبريهما
فكأنني بك قد نقلت اليهما

فعندما سمع الأشرف هذا البيت تطير منه ، ونهض قائما وهو سب الأمير بيدرا نائب السلطنة لشدة حنقه ، وقال . ما وجد هذا شيئا يقوله سوى هذا البيت !

فأخذ بيدرا فى تسكين حنقه ، والاعتذار له عن ابن العنبرى بأنه قد انفرد فى هذا الوقت بحسن الوعظ ، ولا نظير له فيه ، الا أنه لم يرزق سعادة فى هذا الوقت . فلم يصغ السلطان الى قوله وسار ، فانفض المجلس على غير شيء ، وصعد السلطان الى قلعة الجبل .

ثم بعد أيام سأل السلطان عن وقف المارستان ، وأحب أن يجدد له وقفا من بلاد عكا التى افتتحها بسيفه ، فاستدعى القضاة ، وشاورهم فيما هم به من ذلك . فرغبوه فيه ، وحثوه على المبادرة اليه .

فعين أربع ضياع من ضياع عكا وصور ليقفها على مصالح المدرسة والقبة المنصورية ، ما تحتاج اليه من ثمن زيت وشمع ومصابيح وبسط وكلفة الساقية ، وعلى خمسين مقرئا يرتبون لقراءة القرآن الكريم بالقبة ، وامام راتب يصلى بالناس الصلوات الخمس فى محراب القبة ، وستة خدام يقيمون بالقبة — وهى الكابرة ، وتل الشيوخ ، وكرداتة وضواحيها من عكا ، ومن ساحل صور معركة وصدفين — وكتب بذلك كتاب وقف ، وجعل النظر فى ذلك لوزيره الصاحب شمس الدين محمد بن السلعوس .

فلما تم ذلك ، تقدم بعمل مجتمع بالقبة لقراءة ختمة كريمة ، وذلك ليلة الاثنين رابع ذى القعدة سنة تسعين وستمائة فاجتمع القراء والوعاظ والمشايخ والفقراء والقضاة لذلك ، وخلع على عامة أرباب الوظائف والوعاظ ، وفرقت فى الناس صدقات جمة .

وعمل مهم عظيم احتفل فيه الوزير احتفالا زائدا ، وبات الأمير بدر الدين بيدرا نائب السلطنة والأمير الوزير شمس الدين محمد بن السلعوس بالقبة . وحضر السلطان ، ومعه الخليفة الحاكم بأمر الله أحمد ، وعليه سواده ، فخطب الخليفة خطبة بليغة حرض فيها على أخذ العراق من التتار . فلما فرغ من المهم ، أفاض السلطان على الوزير تشريفا سنيا .

وفى يوم الخميس حادى عشر ربيع الأول سنة احدى وتسعين وستمائة ، اجتمع القراء والوعاظ والفقهاء والأعيان بالقبة المنصورية لقراءة ختمة شريفة ، ونزل السلطان الملك الأشرف ، وتصدق بمال كثير .

وآخر من نزل الى القبة المنصورية من ملوك بنى قلاوون ، السلطان الملك الناصر حسن بن

محمد بن قلاوون فى سنة احدى وستين وسبعمائة ، وحضر عنده بالقبة مشايخ العلم ، وبحثوا فى العلم ، وزار قبر أبيه وجده ، ثم خرج فنظر فى أمر المرضى بالمارستان ، وتوجه الى قلعة الجبل * .

المدرسة الناصرية

هذه المدرسة بجوار القبة المنصورية من شرقيها . كان موضعها حماما ، فأمر السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى بانشاء مدرسة موضعها . فابتدىء فى عملها ، ووضع أساسها ، وارتفع بناؤها عن الأرض الى نحو الطراز المذهب الذى بظاهرها . فكان من خلعه ما كان .

فلما عاد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الى مملكة مصر فى سنة ثمان وتسعين وستمائة ، أمر باتمامها ، فكملت فى سنة ثلاث وسبعمائة . وهى من أجل مبانى القاهرة ، وبابها من أعجب ما عملته أيدى بنى آدم فانه من الرخام الأبيض البديع الزى الفائق الصناعة ، ونقل الى القاهرة من مدينة عكا .

وذلك أن الملك الأشرف خليل بن قلاوون ، لما فتح عكا عنوة فى سابع عشر جمادى الأولى سنة تسعين وستمائة ، أقام الأمير علم الدين سنجر الشجاعى لهدم أسوارها وتخريب كنائسها . فوجد هذه البوابة على باب كنيسة من كنائس عكا ، وهى من رخام ، قواعدها وأعضادها وعمدها كل ذلك متصل بعضه ببعض ، فحمل الجميع الى القاهرة ، وأقام عنده الى أن قتل الملك الأشرف .

وتمادى الحال على هذا أيام سلطنة الملك الناصر محمد الأولى فلما خلع ، وتملك كتبغا ، أخذ دار الأمير سيف الدين بلبان الرشيدى ليعملها مدرسة ، فدل على هذه البوابة ، فأخذها من ورثة الأمير بيدرا — فانها كانت قد انتقلت اليه — وعملها كتبغا على باب هذه المدرسة .

فلما خلع من الملك ، وأقيم الناصر محمد ، اشترى هذه المدرسة قبل اتمامها والاشهاد بوقفها ، وولى شراءها وصيه قاضى القضاة زين الدين على بن محلوف المالكى ، وأنشأ بجوار هذه المدرسة من داخل بابها قبة جليلة ، لكنها دون قبة أبيه ، ولما كملت نقل اليها أمه بنت سكباى بن قراجين .

ووقف على هذه المدرسة قيسارية أمير على بخط الشرابشيين من القاهرة ، والربع الذى يعلوها — وكان يعرف بالدهيشة — ووقف عليها أيضا حوانيت بخط باب الزهومة من القاهرة ، ودار الطعم خارج مدينة دمشق

فلما مات ابنه أنوك من الخاتون طغاى ، فى يوم الجمعه سابع عشر ربيع الأول سنة احدى وأربعين وسبعمائة ، وعمره ثمانى عشرة سنة ، دفنه بهذه القبة ، وعمل عليها وقفا يختص بها . وهو باق الى اليوم يصرف لقراء وغير ذلك .

وأول من رتب فى تدرس المدرسة الناصرية من المدرسين : قاضى القضاة زين الدين على بن مخلوف المالكى ليدرس فقه المالكية بالايوان الكبير القبلى ، وقاضى القضاة شرف الدين عبد الغنى الحرانى ليدرس فقه الحنابلة بالايوان الغربى ، وقاضى القضاة أحمد بن

(*) ص ٣٨١ ؛ ج ٢ ، ط . بولاق .

السروجى الحنفى ليدرس فقه الحنفية بالايوان الشرقى ، والشيخ صدر الدين محمد بن المرحل — المعروف بابن الوكيل — الشافعى ليدرس فقه الشافعية بالايوان البحرى . وقرر عند كل مدرس منهم عدة من الطلبة ، وأجرى عليهم المعاليم ، ورتب بها اماما يؤم بالناس فى الصلوات الخمس ، وجعل بها خزانة كتب جليلة .

وأدركت هذه المدرسة وهى محترمة الى الغاية يجلس بدهليزها عدة من الطواشية ، ولا يمكن غريب أن يصعد اليها . وكان يفرق بها على الطلبة والقراء وسائر أرباب الوظائف بها السكر فى كل شهر ، لكل أحد منهم نصيب ، ويفرق عليهم لحوم الأضاحى فى كل سنة . وقد بطل ذلك ، وذهب ما كان لها من الناموس . وهى اليوم عامرة من أجل المدارس .

المدرسة الحجازية

هذه المدرسة برحبة باب العيد من القاهرة ، بجوار قصر الحجازية ، كان موضعها بابا من أبواب القصر يعرف بباب الزمرذ . أنشأتها الست الجليلة الكبرى خوند تتر الحجازية ابنة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، زوجة الأمير بكتمر الحجازى ، وبه عرفت .

وجعلت بهذه المدرسة درسا للفقهاء الشافعية قررت فيه شيخنا شيخ الاسلام سراج الدين عمر بن رسلان البلقينى ، ودرسا للفقهاء المالكية ، وجعلت بها منبرا يخطب عليه يوم الجمعة ، ورتبت لها اماما راتبا يقيم بالناس الصلوات الخمس ، وجعلت بها خزانة كتب .

وأنشأت بجوارها قبة من داخلها لتدفن تحتها ، ورتبت بشباك هذه القبة عدة قراء يتناوبون قراءة القرآن الكريم ليلا ونهارا ، وأنشأت بها منارا عاليا من حجارة ليؤذن عليه . وجعلت بجوار المدرسة مكتبا للسبيل ، فيه عدة من أيتام المسلمين ، ولهم مؤدب يعلمهم القرآن الكريم ، ويجرى عليهم فى كل يوم لكل منهم من الخبز النقى خمسة أرغفة ومبلغ من الفلوس ، ويقام لكل منهم بكسوتى الشتاء والصيف .

وجعلت على هذه الجهات عدة أوقاف جليلة يصرف منها لأرباب الوظائف المعاليم السنية . وكان يفرق فيهم كل سنة ، أيام عيد الفطر ، الكعك والخشكنانك ، وفى عيد الأضحى اللحم ، وفى شهر رمضان يطبخ لهم الطعام . وقد بطل ذلك ، ولم يبق غير المعلوم فى كل شهر .

وهى من المدارس الكبسة ، وعهدى بها محترمة الى الغاية * ، يجلس بها عدة من الطواشية ، ولا يمكنون أحدا من عبور القبة التى فيها قبر خوند الحجازية الا القراء فقط وقت قراءتهم خاصة .

واتفق مرة أن شخصا من القراء كان فى نفسه شىء من أحد رفقائه ، فأتى الى كبير الطواشية بهذه القبة ، وقال له : ان فلانا دخل اليوم الى القبة وهو بغير سراويل . فغضب الطواشى من هذا القول ، وعد ذلك ذنبا عظيما وفعلا محذورا ، وطلب ذلك المقرىء ، وأمر به فضرب بين يديه ، وصار يقول له : تدخل على خوند بغير سراويل ! وهم باخراجه من

(*) ص ٣٨٢ ، جـ ٢ ، ط . بولاق .

وظيفة القراءة لولا ما حصل من شفاعة الناس فيه .

وكان لا يلى نظر هذه المدرسة الا الأمراء الأكابر ، ثم صار يليها الخدام وغيرهم وكان انشاؤها فى سنة احدى وستين وسبعمائة .

ولما ولى الأمير جمال الدين يوسف البجاسى وظيفة أستادارية السلطان الملك النـاصر فرج ابن برقوق ، وعمر بجانب هذه المدرسة داره ثم مدرسته ، صار يحبس فى المدرسة الحجازية من يصادره أو يعاقبه ، حتى امتلأت بالمسجونين والأعوان المرسمين عليهم ، فزالت تلك الأبهة وذهب ذلك الناموس . واقتدى بجمال الدين من سكن بعده من الأسـتادارية فى داره ، وجعلوا هذه المدرسة سجنا ، ومع ذلك فهى من أبهج مدارس القاهرة الى الآن .

المدرسة الطيبرسية

هذه المدرسة بجـوار الجـامع الأزهر من القاهرة ، وهى غربيه مما يلى الجهة البحرية . أنشأها الأمير علاء الدين طيبرس الخازندارى نقيب الجيوش ، وجعلها مسجدا لله تعالى زيادة فى الجامع الأزهر ، وقرر بها درسا للفقهاء الشافعية ، وأنشأ بجوارها ميضأة وحوض ماء سبيل ترده الدواب .

وتأنق فى رخامها وتذهيب سقوفها ، حتى جاءت فى أبدع زى ، وأحسن قالب ، وأبهج ترتيب ، لما فيها من اتقـان العمل وجـودة الصناعة ، بحيث انه لم يقدر أحد على محاكاة ما فيها من صناعة الرخام ، فان جميعه أشكال المحاريب ، وبلغت النفقة عليها جملة كثيرة ، وانتهت عمارتها فى سنة تسع وسبعمائة . ولها بسط تفرش فى يوم الجمعة كلها منقوشـة بأشكال المحاريب أيضا ، وفيها خزانة كتب ، ولها امام راتب

« طيبرس » بن عبد الله الوزيرى كان فى ملك الأمير بدر الدين بيلبك مملوك الخازندار الظاهرى نائب السلطنة ، ثم انتقل الى الأمير بدر الدين بيدرا ، وتنقل فى خدمته حتى صار نائب الصبيبة ، ورأى مناما للمنصور لاجين يدل على أنه يصير سلطان مصر ، وذلك قبل أن يتقلد السلطنة وهو نائب الشـام ، فوعده ان صارت اليه السلطنة أن يقدمه وينوه به

فلما تملك لاجين استدعاه ، وولاه نقـابة الجيش بديار مصر — عوضـا عن بلبـان الفاخرى — فى سنة سبع وتسعين وستمائة . فباشر النقابة مباشرة مشكورة الى الغاية ، من اقامة الحرمة ، وأداء الأمانة ، والعفة المفرطة ، بحيث انه ما عرف عنه أنه قبل من أحد هدية ألبتة ، مع التزام الديانة والمواظبة على فعـل الخير والغنى الواسع

وله من الآثار الجميلة الجـامع والخـانقاه بأراضى بستان الخشاب ، المطلة على النيـل خارج القاهرة ، فيما بينها وبين مصر بجـوار المنشأة . وهو أول من عمر فى أراضى بستان الخشاب ، وقد تقدم ذكر ذلك ، ومن آثاره أيضا هذه المدرسة البديعة الزى ، وله على كل من هذه الأماكن أوقاف جليلة .

ولم يزل فى نقابة الجيش الى أن مات فى العشرين من شهر ربيع الآخر سنة تسع عشرة وسبعمائة ، ودفن فى مكان بمدرسته هذه ، وقبره بها الى وقتنا هذا . ووجد له من بعده مال كثير جدا ، وأوصى الى الأمير علاء الدين

على الكورانى ، وجعل الناظر على وصيته الأمير أرغون نائب نائب السلطنة

واتفق أنه لما فرغ من بناء هذه المدرسة ، أحضر اليه مباشروه حساب مصروفها فلما قدم اليه استدعى بطشت فيه ماء ، وغسل أوراق الحساب بأسرها من غير أن يقف على شيء منها ، وقال : شيء خرجنا عنه لله تعالى لا نحاسب عليه .

ولهذه المدرسة شبابيك فى جدار الجامع تشرف عليه ، ويتوصل من بعضها اليه ، وما عمل ذلك حتى استفتى الفقهاء فيه ، فأفتوه بجواز فعله وقد تداولت أيدى نظار السوء على أوقاف طيبرس هذا ، فخرب أكثرها ، وخرب الجامع والخانقاه ، وبقيت هذه المدرسة ... عمرها الله بذكره .

المدرسة الاقبغاوية

هذه المدرسة بجوار الجامع الأزهر ، على يسرة من يدخل اليه من بابه الكبير البحرى ، وهى تشرف بشبابيك على الجامع مركبة فى جداره ، فصارت تجاه المدرسة الطيبرسية . كان موضعها دار الأمير الكبير عز الدين أيدمر الحلى ، نائب السلطنة فى أيام الملك الظاهر بيبرس ، وميضأة للجامع ، فأنشأها الأمير علاء الدين أقبغا عبد الواحد * ، أستادار الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وجعل بجوارها قبة ومنارة من حجارة منحوتة .

وهى أول مئذنة عملت بديار مصر من الحجر بعد المنصورية ، وانما كانت قبل ذلك تبنى بالآجر ... بناها هى والمدرسة المعلم ابن السيوفى ، رئيس المهندسين فى الأيام الناصرية ، وهو الذى تولى بناء جامع الماردينى خارج باب زويلة ، وبنى مئذنته أيضا .

وهى مدرسة مظلمة ، ليس عليها من بهجة المساجد ، ولا أنس بيوت العبادات ، شيء ألبتة . وذلك أن أقبغا عبد الواحد اغتصب أرض هذه المدرسة ، بأن أقرض ورثة أيدمر الحلى مالا ، وأمهل حتى تصرفوا فيه ، ثم أعسفهم فى الطلب ، وألجأهم الى أن أعطوه دراهم ، فهدمها وبنى موضعها هذه المدرسة .

وأضاف الى اغتصاب البقعة أمثال ذلك من الظلم ، فبناها بأنواع من الغصب والعسف ، وأخذ قطعة من سور الجامع حتى ساوى بها المدرسة الطيبرسية ، وحشر لعملها الصناع من البنائين والنجارين والحجارين والمرخمين والفعلة ، وقرر مع الجميع أن يعمل كل منهم فيها يوما فى كل أسبوع بغير أجرة .

فكان يجتمع فيها فى كل أسبوع سائر الصناع الموجودين بالقاهرة ومصر ، فيجدون فى العمل نهارهم كله بغير أجرة ، وعليهم مملوك من مماليكه ، ولاه شد العمارة ، لم ير الناس أظلم منه ، ولا أعتى ولا أشد بأسا ، ولا أقسى قلبا ولا أكثر عنتا . فلقى العمال منه مشقات لا توصف ، وجاء مناسبا لمولاه .

وحمل مع هذا الى هذه العمارة سائر ما يحتاج اليه ، من الأمتعة وأصناف الآلات ، وأنواع الاحتياجات من الحجر والخشب والرخام والدهان وغيره ، من غير أن يدفع فى شيء منه ثمنا ألبتة ، وانما كان يأخذ ذلك اما بطريق الغصب من الناس ، أو على سبيل

(*) ص ٣٨٣ ، جـ ٢ ، ط بولاق .

الخيانة من عمائر السلطان ، فانه كان من جملة ما بيده شد العمائر السلطانية .

وناسب هذه الأفعال أنه ما عرف عنه قط أنه نزل الى هذه العمارة الا وضرب فيها من الصناع عدة ضربا مؤلما ، فيصير ذلك الضرب زيادة على عمله بغير أجرة ، فيقال فيه كملت خصالك هذه بعمارى . فلما فرغ من بنائها ، جمع فيها سائر الفقهاء وجميع القضاة .

وكان الشريف شرف الدين على بن شهاب الدين الحسين بن محمد بن الحسين — نقيب الأشراف ومحتسب القاهرة حينئذ — يؤمل أن يكون مدرسها ، وسعى عنده فى ذلك ، فعمل بسطا على قياسها بلغ ثمنها ستة آلاف درهم فضة ، ورشاه بها ، ففرشت هناك .

ولما تكامل حضور الناس بالمدرسة — وفى الذهن أن الشريف يلى التدريس ، وعرف أنه هو الذى أحضر البسط التى قد فرشت — قال الأمير أقبغا لمن حضر « لا أولى فى هذه الأيام أحدا . وقام .. فتفرق الناس .

وقرر فيها درسا للشافعية ولى تدريسه ... ودرسا للحنفية ولى تدريسه .... [1] وجعل فيها عدة من الصوفية ولهم شيخ ، وقرر بها طائفة من القراء يقرأون القرآن بشباكها ، وجعل لها اماما راتبا ومؤذنا وفراشين وقومة ومباشرين ، وجعل النظر للقاضى الشافعى بديار مصر ، وشرط فى كتاب وقفه ألا يلى النظر أحد من ذريته ، ووقف على هذه الجهات حوانيت خارج باب زويلة بخط تحت الربع ، وقرية بالوجه القبلى .

(1) هكذا بياض فى الاصل

وهذه المدرسة عامرة الى يومنا هذا ، الا أنه تعطل منها الميضأة ، وأضيفت الى ميضأة الجامع لتغلب بعض الأمراء — بمواطأة بعض النظار — على بئر الساقية التى كانت برسمها .

« أقبغا عبد الواحد » الأمير علاء الدين : أحضره الى القاهرة التاجر عبد الواحد بن بدال ، فاشتراه منه الملك الناصر محمد بن قلاوون ، ولقبه باسم تاجره الذى أحضره ، فحظى عنده ، وعمله شاد العمائر ، فنهض فيها نهضة أعجب منه السلطان وعظمه حتى عمله أستادار السلطان بعد الأمير مغلطاى الجمالى ، فى المحرم سنة اثنين وثلاثين وسبعمائة ، وولاه مقدم المماليك فقويت حرمته وعظمت مهابته ، حتى صار سائر من فى بيت السلطان يخافه ويخشاه .

ومابرح على ذلك الى أن مات الملك الناصر ، وقام من بعده ابنه الملك المنصور أبو بكر ، فقبض عليه فى يوم الاثنين سلخ المحرم سنة اثنتين وأربعين وسبعمائه ، وأمسك أيضا ولديه ، وأحيط بماله وسائر أملاكه ، ورسم عليه الأمير طيبغا المجدى ، وبيع موجوده من الخيل والجمال والجوارى والقماش والأسلحة والأوانى ... فظهر له شىء عظيم الى الغاية : من ذلك أنه بيع بقلعه الجبل — وبها كانت تعمل حلقات مبيعة — سراويل امرأته بمبلغ مائتى ألف درهم فضة : عنها نحو عشرة آلاف دينار ذهب ، وبيع له أيضا قبقاب وشرموزة وخف نسائى بمبلغ خمسة وسبعين ألف درهم

فضة : عنها زيادة على ثلاثة آلاف دينار ، وبيعت بدلة مقانع بمائة ألف درهم .

وكثرت المرافعات عليه من التجار وغيرهم . فبعث السلطان اليه شاد الدواوين يعرفه أنه أقسم بتربة الشهيد (يعنى أباه) أنه متى لم يعط هؤلاء حقهم ، والا سمرتك على جمل ، وطفت بك المدينة . فشرع أقبغا فى استرضائهم وأعطاهم نحو المائتى ألف درهم فضة . ثم نزل اليه الوزير نجم الدين محمود بن سرور — المعروف بوزير بغداد — ومعه الحاج ابراهيم بن صابر مقدم الدولة ، لمطالبته بالمال ، فأخذا منه لؤلؤا وجواهر نفيسة ، وصعدا بها الى السلطان .

وكان سبب هذه النكبة أنه كان قد تحكم فى أمور الدولة السلطانية وأرباب الأشغال ، أعلاهم وأدناهم ، بما يخرج له عن الوظائف . وكان عنده فراش غضب عليه وأوجعه ضربا ، فانصرف من عنده ، وخدم فى دار الأمير أبى بكر ولد السلطان ، فبعث أقبغا يستدعى بالفراش اليه فمنعه منه أبو بكر ، وأرسل اليه مع أحد مماليكه يقول له انى أريد أن تهبنى هذا الغلام ، ولا تشوش عليه . فلما بلغه المملوك الرسالة ، اشتد حنقه وسبه سبا فاحشا ، وقال له : قل لأستاذك يسير الفراش وهو جيد له .

وكان قبل ذلك اتفق أن الأمير أبا بكر خرج من خدمة السلطان الى بيته ، فاذا الأمير أقبغا قد بطح مملوكا وضربه ، فوقف أبو بكر بنفسه ، وسأل أقبغا فى العفو عن المملوك ، وشفع فيه ، فلم يلتفت أقبغا اليه (*) ، ولا نظر

(*) ص ٣٨٤ ، جـ ٢ ، ط . بولاق .

الى وجهه ، فخجل أبو بكر من الشامتين — لكونه وقف قائما بين يدى أقبغا وشفع عنده ، فلم يقم من مجلسه لوقوفه ، بل استمر قاعدا وأبو بكر واقف على رجليه ، ولا قبل مع ذلك شفاعته — ومضى وفى نفسه منه حنق كبير .

فلما عاد اليه مملوكه ، وبلغه كلام أقبغا بسبب هذا الفراش ، أكد ذلك عنده ما كان من الاحنة ، وأخذ فى نفسه الى أن مات أبوه الملك الناصر ، وعهد اليه من بعده . وكان قد التزم أنه ان ملكه الله ليصادرن أقبغا ، وليضربنه بالمقارع ، وقال للفراش : اقعد فى بيتى ، واذا حضر أحد لأخذك عرفت ما أعمل معه . وأخذ أقبغا يترقب الفراش ، وأقام أناسا للقبض عليه ، فلم يتهيأ له مسكه .

فلما أفضى الأمر الى أبى بكر ، استدعى الأمير قوصون — وكان هو القائم حينئذ بتدبير أمور الدولة — وعرفه ما التزمه من القبض على أقبغا ، وأخذ ماله وضربه بالمقارع ، وذكر له ولعدة من الأمراء ما جرى له منه . وكان لقوصون بأقبغا عناية ، فقال للسلطان : السمع والطاعة ، يرسم السلطان بالقبض عليه ومطالبته بالمال ، فاذا فرغ ماله يفعل السلطان ما يختاره .

وأراد بذلك تطاول المدة فى أمر أقبغا . فقبض عليه ، ووكل به رسل ابن صابر ، حتى انه بات ليلة قبض عليه من غير أن يأكل شيئا . وفى صبيحة تلك الليلة تحدث الأمراء مع السلطان فى نزوله الى داره محتفظا به ، حتى يتصرف فى ماله ، ويحمله شيئا بعد شىء .

فنزل مع المجدى ، وباع ما يملكه ، وأورد المال .

فلما قبض على الحاج ابراهيم بن صابر ، وأقيم ابن شمس موضعه ، أرسله السلطان الى بيت أقبغا ليعصره ويضربه بالمقارع ويعذبه . فبلغ ذلك الأمير قوصون ، فمنع منه ، وشنع على السلطان كونه أمر بضربه بالمقارع ، وأمر بمراجعته . فحنق من ذلك ، وأطلق لسانه على الأمير قوصون ، فلم يزل به من حضره من الأمراء حتى سكت على مضض .

وكان قوصون يدبر فى انتقاض دولة أبى بكر الى أن خلعه ، وأقام بعده أخاه الملك الأشرف كجك بن محمد بن قلاوون ، وعمره نحو السبع سنين ، وتحكم فى الدوله . فأخرج أقبغا هو وولده من القاهرة ، وجعله من جملة أمراء الدولة بالشام . فسار من القاهرة فى تاسع ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة ، على حيز الأمير مسعود بن خطير بدمشق ، ومعه عياله فأقام بها .

الى أن كانت فتنة الملك الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون ، وعصيانه بالكرك على أخيه الملك الصالح عماد الدين اسماعيل بن محمد بن قلاوون ، فاتهم أقبغا بأنه بعث مملوكا من مماليكه الى الكرك ، وأن الناصر أحمد خلع عليه ، وضربت البشائر بقلعة الكرك ، وأشاع أن أمراء الشام قد دخلوا فى طاعته وحلفوا له ، وأن أقبغا قد بعث اليه مع مملوكه يبشره بذلك .

فلما وصل الى الملك الصالح كتاب عساف أخى شطى بذلك ، وصل فى وقت وروده كتاب نائب الشام الأمير طقزدمر ، يخبر فيه بأن جماعة من أمراء الشام قد كاتبوا أحمد بالكرك وكاتبهم ، وقد قبض عليهم ، ومن جملتهم أقبغا عبد الواحد . فرسم بحمله مقيدا ، فحمل من دمشق الى الاسكندرية ، وقتل بها فى آخر سنة أربع وأربعين وسبعمائة .

وكان من الظلم والطمع والتعاظم على جانب كبير ، وجمع من الأموال شيئا كثيرا وأقام جماعة من أهل الشر لتتبع أولاد الأمراء ، وتعرف أحوال من افتقر منهم أو احتاج الى شىء ، فلا يزالون به حتى يعطوه مالا على سبيل القرض بفائدة جزيلة الى أجل ، فاذا استحق المال أعسفه فى الطلب ، وألجأه الى بيع ما له من الأملاك ، وحلها ان كانت وقفا بعنايته به ، وعين لعمل هذه الحيل شخصا يعرف بابن القاهرى وكان اذا دخل لأحد من القضاة فى شراء ملك أو حل وقف ، لا يقدر على مخالفته ، ولا يجد بدا من موافقته

ومن غريب ما حكى عن طمع أقبغا أن مشد الحاشية دخل عليه ، وفى أصبعه خاتم بفص أحمر من زجاج له بريق ، فقال له أقبغا . ايش هو هذا الخاتم ؟

فأخذ يعظمه ، وذكر أنه من تركة أبيه .

فقال : بكم حسبوه عليك ؟

فقال . بأربعمائة درهم .

فقال : أربه .

فناوله اياه ، فأخذه وتشاغل عنه ساعة ، ثم قال له : والله فضيحة أن نأخذ خاتمك ، ولكن خذه أنت وهات ثمنه !

ودفعه اليه ، وألزمه باحضار الأربعمائة درهم فما وسعه الا أن * أحضرها اليه . فعاقبه الله بذهاب ماله وغيره ، وموته غريبا .

المدرسة الحسامية

هذه المدرسة بخط المسطاح من القاهرة ، قريبا من حارة الوزيرية بناها الأمير حسام الدين طرنطاى المنصورى ، نائب السلطنة بديار مصر ، الى جانب داره ، وجعلها برسم الفقهاء الشافعية . وهى فى وقتنا هذا تجاه سوق الرقيق ، ويسلك منها الى درب العداس والى حارة الوزيرية والى سويقة الصاحب وباب الخوخة وغير ذلك

وكان بجانبها طبقة لحياط ، فطلبت منه بثلاثة آمثال ثمنها فلم يبعها ، وقيل لطرنطاى : لو طلبته لاستحيى منك . فلم يطلبه ، وتركه وطبقته ، وقال : لا آشوش عليه

« طرنطاى » بن عبد الله : الأمير حسام الدين المنصورى . رباه الملك المنصور قلاووز صغيرا ، ورقاه فى خدمه . الى أن تقلد سلطنة مصر ، فجعله نائب السلطنة بديار مصر ، عوضا عن الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحى ، وخلع عليه فى يوم الخميس رابع عشر رمضان سنة ثمان وسبعين وستمائة . فباشر ذلك مباشرة حسنة .

الى أن كانت سنة خمس وثمانين ، فخرج من القاهرة بالعساكر الى الكرك — وفيها الملك المسعود نجم الدين خضر . وأخوه بدر الدين سلامش ، ابنا الملك الظاهر بيبرس — فى رابع المحرم ، وسار اليها . فوافاه الأمير بدر الدين الصوانى بعساكر دمشق فى ألفى فارس ، ونازلا الكرك ، وقطعا الميرة عنها ، واسنفسدا رجال الكرك حتى أخذا خضرا وسلامش بالامان فى خامس صفر ، وتسلم الأمير عز الدين أيبك الموصلى ، نائب الشوبك مدينة الكرك ، واستقر فى نيابة السلطنة بها ، وبعث الأمير طرنطاى بالبشارة الى قلعة الجبل فوصل البريد بذلك فى ثامن صفر

ثم قدم بابنى الظاهر ، فخرج السلطان الى لقائه فى ثانى عشر ربيع الأول ، وأكرم الأمير طرنطاى ، ورفع قدره ، ثم بعثه الى أخذ صهيون — وبها سنقر الأشقر — فسار بالعساكر من القاهرة فى سنة ست وثمانين ، ونازلها وحصرها حتى نزل اليه سنقر بالأمان ، وسلم اليه قلعة صهيون ، وسار به الى القاهرة . فخرج السلطان الى لقائه وأكرمه .

ولم يزل على مكانته الى أن مات الملك المنصور ، وقام فى السلطنة بعده ابنه الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون ، فقبض عليه فى يوم السبت ثالث عشر ذى القعدة سنة تسع وثمانين ، وعوقب حتى مات يوم الاثنين خامس عشره بقلعة الجبل ، وبقى ثمانية أيام بعد قتله مطروحا بحبس القلعة .

ثم أخرج فى ليلة الجمعة سادس عشرى ذى القعدة ، وقد لف فى حصير ، وحمل على جنوية الى زاوية الشيخ أبى السعود بالقرافة . فغسله الشيخ عمر السعودى شيخ الزاوية ، وكفنه من ماله ، ودفنه خارج الزاوية ليلا ، وبقى هناك الى سلطنة العادل كتبغا ، فأمر

(*) ص ٣٨٥ ج ٢ ، ط . بولاق

بنقل جثته الى تربته التى أنشأها بمدرسته هذه .

وكان سبب القبض عليه وقتله أن الملك الأشرف كان يكرهه كراهة شديدة فانه كان يطرح جانبه في أيام أبيه ، ويبغض منه ويهين نوابه ، ويؤذى من يخدمه ، لأنه كان يميل الى أخيه الملك الصالح علاء الدين على بن قلاوون . فلما مات الملك الصالح على ، وانتقلت ولاية العهد الى الأشرف خليل بن قلاوون ، مال اليه من كان ينحرف عنه فى حياة أخيه ... الا طرنطاى ، فانه ازداد تماديا فى الاعراض عنه ، وجرى على عادته فى أذى من ينسب اليه ، وأغرى الملك المنصور بشمس الدين محمد بن السلعوس — ناظر ديوان الأشرف — حتى ضربه ، وصرفه عن مباشرة ديوانه .

والأشرف مع ذلك يتأكد حنقه عليه ، ولا يجد بدا من الصبر الى أن صار له الأمر بعد أبيه ، ووقف الأمير طرنطاى بين يديه فى نيابة السلطنة على عادته ، وهو منحرف عنه لما أسلفه من الاساءة عليه . وأخذ الأشرف فى التدبير عليه .. الى أن نقل له عنه أنه يتحدث سرا فى افساد نظام المملكة ، واخراج الملك عنه ، وأنه قصد أن يقتل السلطان وهو راكب فى الميدان الأسود الذى تحت قلعة الجبل عند ما يقرب من باب الاصطبل ، فلم يحتمل ذلك .

وعندها سير أربعة ميادين — والأمير طرنطاى ومن وافقه عد باب سارية — حتى انتهى الى رأس الميدان ، وقرب من باب الاصطبل ، وفى الظن أنه يعطف الى باب سارية ليكمل التسيير على العادة ، فعطف الى جهة القلعة ، وأسرع ودخل من باب الاصطبل . فبادر الأمير طرنطاى عندما عطف السلطان ، وساق فيمن معه ليدركوه ، ففاتهم وصار بالاصطبل فيمن خف معه من خواصه .

وما هو الا أن نزل الأشرف من الركوب ، فاستدعى بالأمير طرنطاى ، فمنعه الأمير زين الدين كتبغا المنصورى من الدخول اليه ، وحذره منه وقال له . والله انى أخاف عليك منه ، فلا تدخل عليه الا فى عصبة تعلم أنهم يمنعونك منه ان وقع أمر تكرهه

فلم يرجع اليه ، وغره أن أحدا لا يجسر عليه لمهابته فى القلوب ومكانته من الدولة ، وأن الأشرف لا يبادره بالقبض عليه ، وقال لكتبغا : والله لو كنت نائما ما جسر خليل ينبهنى .

وقام ومشى الى السلطان ، ودخل ومعه كتبغا . فلما وقف على عادته ، بادر اليه جماعة قد أعدهم السلطان * وقبضوا عليه ، فأخذه اللكم من كل جانب ... والسلطان يعدد ذنوبه ، ويذكر له اساءته ويسبه . فقال له : ياخوند ، هذا جميعه قد عملته معك ، وقدمت الموت بين يدى ، ولكن والله لتندمن من بعدى .

هذا والأيدى تتناوب عليه ، حتى ان بعض الخاصكية قلع عيبه ، وسحب الى السجن . فخرج كتبغا وهو يقول . ايش أعمل ؟ ويكررها . فأدركه الطلب ، وقبض عليه أيصا ، ثم آل أمر كتبغا بعد ذلك الى أن ولى سلطنة مصر .

(*) ص ٣٨٦ ، جـ ٢ ، ط ، بولاق .

وأوقع الأشرف الحوطة على أموال طرنطاى، وبعث الى داره الأمير علم الدين سنجر الشجاعى . فوجد له من العين ستمائه ألف دينار ، ومن الفضة سبعة عشر ألف رطل ومائة رطل مصرى . عنها زيادة على مائة وسبعين قنطارا فضة سوى الأوانى ، ومن العدد والأسلحة والأقمشة والآلات والخيول والمماليك ما يتعذر احصاء قيمته ، ومن الغلات والأملاك شىء كثير جدا ووجد له من البضائع والأموال المسفرة على اسمه ، والودائع والمقارضات ، والقنود والأعمال ، والأبقار والأغنام ، والرقيق وغير ذلك . شىء يجل وصفه هذا سوى ما أحصاه مباشروه بمصر والشام .

فلما حملت أمواله الى الأشرف ، جعل يقلبها ويقول :

من عاش بعد عدوه يوما فقد بلغ المنى

واتفق بعد موت طرنطاى أن ابنه سأل الدخول على السلطان الأشرف ، فأذن له فلما وقف بين يديه ، جعل المنديل على وجهه — وكان أعمى — ثم مد يده وبكى ، وقال : شىء لله ! وذكر أن لأهله أياما ما عندهم ما يأكلونه . فرق له وأفرج عن أملاك طرنطاى ، وقال : تبلغوا بريعها ... فسبحان من بيده القبض والبسط .

المدرسة المنكوتمرية

هذه المدرسة بحارة بهاء الدين من القاهرة . بناها بجوار داره الأمير سيف الدين منكوتمر الحسامى ، نائب السلطنة بديار مصر ، فكملت فى صفر سنة ثمان وتسعين وستمائة وعمل بها درسا للمالكية قرر فيه الشيخ شمس الدين محمد بن أبى القاسم بن عبد السلام بن جميل التونسى المالكى ، ودرسا للحنفية درس فيه ... ...[1] ، وجعل فيها خزانة كتب ، وجعل عليها وقفا ببلاد الشام . وهى اليوم بيد قضاة الحنفية يتولون نظرها ، وأمرها متلاش ، وهى من المدارس الحسنة .

« منكوتمر » : هو أحد مماليك الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصورى ترقى فى خدمته ، واختص به اختصاصا زائدا الى أن ولى مملكة مصر بعد كتبغا فى سنة ست وتسعين وستمائة ، فجعله أحد الأمراء بديار مصر ، ثم خلع عليه خلع نيابة السلطنة — عوضا عن الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى — يوم الأربعاء النصف من ذى القعدة .

فخرج سائر الأمراء فى خدمته الى دار النيابة ، وباشر النيابة بتعاظم كثير ، وأعطى المنصب حقه من الحرمة الوافرة والمهابة التى تخرج عن الحد ، وتصرف فى سائر أمور الدولة من غير أن يعارضه السلطان فى شىء ألبتة ، وبلغت عبرة اقطاعه فى السنة زيادة على مائة ألف دينار .

ولما عمل الملك المنصور الروك ، المعروف بالروك الحسامى ، فوض تفرقة منالات اقطاعات الأجناد له ، فجلس فى شباك دار النيابة بقلعة الجبل ، ووقف الحجاب بين يديه ، وأعطى لكل تقدمة منالات ، فلم يجسر

(١) هكذا بياض فى الاصل

أحد أنْ تتحدثْ في زيادة ولا نقصانْ ، خوفا من سوء خلقه وشدة حمقه .

وبقي أياما في تفرقة المثالات ، والناس على خوف شديد فان أقل الاقطاعات كان في أيام الملك المنصور قلاوون عشرة آلاف درهم في السنة ، وأكثره ثلاثين ألف درهم ، فرجع في الروك الحسامي أكثر اقطاعات الحلقـة الى مبلغ عشرين ألف درهم رما دونها

فشق ذلك على الأجناد وتقدم طائفة منهم ورموا مثالاتهم التي فرقت عليهم ، لأن الواحد منهم وجد مثاله تحت النصف مما كان له قبل الروك ، وقالوا لمنكوتمر : اما أن تعطونا ما يقوم بكلفنا ، والا فخذوا أخباركم ونحن نخدم الأمراء أو نصير بطالين

فغضب منكوتمر ، وأخرق بهم ، وتقدم الى الحجـاب فضربوهم ، وأخـذوا سـيوفهم ، وأودعوهم السجون . وأخذ يخاطب الأمراء بفحش ، ويقول : أيما قوا شكا من خبز ، ونقول نقول للسلطان ، فعلت به فعلت ، أيش يقول للسلطان ؟ ان رضى يخدم الا الى لعنة الله فشق ذلك على الأمراء ، وأسروا له الشر .

ثم انه لم يزل بالسلطان حتى قبض عـلى الأمير بدر الدين بيسرى ، وحسن له اخراج أكابر الأمراء من مصر ، فجردهم الى سيس ، وأصبح وقد خلا له الجو فلم يرض بذلك حتى تحدث مع خوشداشيته بأنه لا بد أن ينشىء له دولة جديدة ، ويخرج طغجي وكرجي من مصر .

ثم انه جهز حمدان بن صلغاى الى حلب في صورة أنه يستعجل العساكر من سيس ، وقرر معـه القبض على عـدة من الأمراء ، وأمّر عدة * أمراء جعلهم له عدة وذخرا . وتقدم الى الصاحب فخر الدين الخليلي بأن يعمل أوراقا تتضمن أسماء أرباب الرواتب ليقطع أكثرها .

فلم تدخل سـنـه ثمـان وتسعين ، حتى استوحشت خواطر الناس بمصر والشـام من منكوتمر ، وزاد حتى أراد السلطان أن يبعث بالأمير طغجي الى نيابة طرابلس ، فتنصـل طغجي من ذلك فلم يعفه السلطان منـه . وألح منكوتمر في اخراجه ، واغلظ للأمير كرجي في القـول وحط على سـلار وبيبـرس الجاشنكير وأنظارهم وعض منهم وكان كرجي شرس الأخلاق ، ضيق العطن ، سريع الغضب ، فهم غير مرة بالفتـك بمنكوتمر ، وطغجي يسكن غضبه .

فبلغ السلطان فساد قلوب الأمراء والعسكر فبعث قاضي القضاة حسام الدين الحسن بن أحمد بن الحسن الرومي الحنفي الى منكوتمر يحدثه في ذلك ويرجعه عما هو فيه فلم يلتفت الى قوله وقال . أنا ما لي حاجـة بالنيابة ، أريد أخرج مع الفقراء

فلما بلغ السلطان عنـه ذلك استـدعاه ، وطيب خاطره ، ووعده بسفر طغجي بعد أيام ، ثم القبض على كرجي بعده فنقـلْ هـذا للأمراء ، فتحالفوا وقتلوا السلطان ، كما قد ذكر في خبره ، وأول من بلغـه خبر مقتـلْ السلطانْ الأمير منكوتمر ، فقـام الى شباك النيابة بالقلعة ، فرأى باب القلة وقد انفتح ،

(*) ٣٨٧ ، جـ ٢ ، ٤ صـ بولاق .

وخرج الأمراء ، والشموع تقد ، والضجة قد ارتفعت ، فقال . والله قد فعلوها . وأمر فغلقت أبواب دار النيابة ، وألبس مماليكه آلة الحرب .

فبعث الأمراء اليه بالأمير الحسام أستادار ، فعرفه بمقتل السلطان ، وتلطف به حتى نزل وهو مشدود الوسط بمنديل ، وسار به الى باب القلة ... والأمير طفجى قد جلس فى مرتبة النيابة . فتقدم الى طفجى ، وقبل يده ، فقام اليه ، وأجلسه بجانبه . وقام الأمراء فى أمر منكوتمر يشفعون فيه ، فأمر به الى الجب وأنزلوه فيه .

وعندما استقر به أدليت له القفة التى نزل فيها ، وتصايحوا عليه بالصعود ، فطلع عليهم . واذا كرجى قد وقف على رأس الجب فى عدة من المماليك السلطانية ، فأخذ يسب منكوتمر ويهينه ، وضربه بلت ألقاه ، وذبحه بيده على الجب ، وتركه وانصرف فكان بين قتل أستاذه وقتله ساعة من الليل ، وذلك فى ليلة الجمعة عاشر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين .

المدرسة القراسنقرية

هذه المدرسة تجاه خانقاه الصلاح سعيد السعداء ، فيما بين رحبة باب العيد وباب النصر ، كان موضعها ، وموضع الربع الذى بجانبها الغربى ، مع خانقاه بيبرس وما فى صفها ، الى حمام الأعسر وباب الجوانية ... كل ذلك من دار الوزارة الكبرى التى تقدم ذكرها . أنشأها الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى ، نائب السلطنة ، سنة سبعمائة . وبنى بجوار بابها مسجدا معلقا ، ومكتبا لاقراء أيتام المسلمين كتاب الله العزيز ، وجعل بهذه المدرسة درسا للفقهاء ، ووقف على ذلك داره التى بحارة بهاء الدين وغيرها . ولم يزل نظر هذه المدرسة بيد ذرية الواقف الى سنة خمس عشرة وثمانمائة ، ثم انقرضوا .

وهي من المدارس المليحة . وكنا نعهد البريدية اذا قدموا من الشام وغيرها لا ينزلون الا فى هذه المدرسة حتى يتهيأ سفرهم ، وقد بطل ذلك من سنة تسعين وسبعمائة .

« قراسنقر بن عبد الله » : الأمير شمس الدين الجوكندار المنصورى . صار الى الملك المنصور قلاوون ، وترقى فى خدمته الى أن ولاه نيابة السلطنة بحلب ، فى شعبان سنة اثنتين وثمانين وستمائة ، عوضا عن الأمير علم الدين سنجر الباشقردى ، فلم يزل فيها الى أن مات الملك المنصور ، وقام من بعده ابنه الملك الأشرف خليل بن قلاوون .

فلما توجه الأشرف الى فتح قلعة الروم ، عاد بعد فتحها الى حلب ، وعزل قراسنقر عن نيابتها ، وولى عوضه الأمير سيف الدين بلبان الطباخى ، وذلك فى أوائل شعبان سنة احدى وتسعين وكانت ولايته على حلب تسع سنين

فلما خرج السلطان من مدينة حلب ، خرج فى خدمته ، وتوجه مع الأمير بدر الدين بيدرا — نائب السلطنة بديار مصر — فى عدة من الأمراء لقتال أهل جبال كسروان . فلما عاد سار مع السلطان من دمشق الى القاهرة ، ولم يزل بها الى أن ثار الأمير بيدرا على الأشرف ، فتوجه معه وأعان على قتله . فلما

قتل بيدرا فر قراسنقر ولاجين فى نصف المحرم سنة ثلاث وتسعين وستمائة ، واختفيا بالقاهرة .

الى أن استقر الأمر للملك الناصر محمد ابن قلاوون ، وقام فى نيابة السلطنة وتدبير الدولة الأمير زين الدين كتبغا ، فظهرا فى يوم عيد الفطر . وكانا عند فرارهما ، يوم قتل بيدرا ، أطلعا الأمير بيحاص الزينى — مملوك الأمير كتبغا نائب السلطنة — على حالهما ، فأعلم أستاذه بأمرهما ، وتلطف به حتى تحدث فى شأنهما مع السلطان ، فعفا عنهما

ثم تحدث مع الأمير بكتاش الفحرى الى أن ضمن له التحدث مع الأمراء ، وسعى فى الصلح بينهما * وبين الأمراء والمماليك حتى زالت الوحشة ، وظهرا من بيت الأمير كتبغا . فأحضرهما بين يدى السلطان ، وقبلا الأرض ، وأفيضت عليهما التشاريف ، وجعلهما أمراء على عادتهما ، ونزلا الى دورهما ، فحمل اليهما الأمراء ما جرت العادة به من التقادم .

فلم يزل قراسنقر على امرته الى أن خلع الملك الناصر محمد بن قلاوون من السلطنة ، وقام من بعده الملك العادل زين الدين كتبغا ، فاستمر على حاله ... الى أن ثار الأمير حسام الدين لاجين ، نائب السلطنة بديار مصر ، على الملك العادل كتبغا بمنزلة العوجاء من طريق دمشق . فركب معه قراسنقر وغيره من الأمراء الى أن فر كتبغا ، واستمر الأمر لحسام الدين لاجين ، وتلقب بالملك المنصور .

(*) ص ٣٨٨ ، جـ ٢ ، ط . بولاق

فلما استقر بقلعة الجبل ، خلع على الأمير قراسنقر ، وجعله نائب السلطنة بديار مصر فى صفر سنة ست وتسعين وستمائة . فباشر النيابة الى يوم الثلاثاء للنصف من ذى القعدة فقبض عليه ، وأحيط بموجوده وحواصله ونوابه ودواوينه بديار مصر والشام ، وضيق عليه ، واستقر فى نيابة السلطنة بعده الأمير منكوتمر .

وعد السلطان من أسباب القبض عليه اسرافه فى الطمع ، وكثرة الحمايات ، وتحصيل الأموال على سائر الوجوه ، مع كثرة ما وقع من شكاية الناس من مماليكه ، ومن كاتبه شرف الدين يعقوب . فانه كان قد تحكم فى بيته تحكما زائدا ، وعظمت نعمته ، وكثرت سعادته ، وأسرف فى اتخاذ المماليك والخدم ، وانهمك فى اللعب الكثير ، وتعدى طوره ... وقراسنقر لا يسمع فيه كلاما . وحدثه السلطان بسببه ، وأغلظ فى القول ، وألزمه بضربه وتأديبه أو اخراجه من عنده ، فلم يعبأ بذلك .

وما زال قراسنقر فى الاعتقال الى أن قتل الملك المنصور لاجين ، وأعيد الملك الناصر محمد بن قلاوون الى السلطنة ، فأفرج عنه وعن غيره من الأمراء ، ورسم له بنيابة الصبيبة . فخرج اليها ، ثم نقل منها الى نيابة حماه بعد موت صاحبها الملك المظفر تقى الدين محمود ، بسفارة الأمير بيبرس الجاشنكير والأمير سلار .

ثم نقل من نيابة حماه بعد ملاقاة التتر الى نيابة حلب . واستقر عوضه فى نيابة حماه الأمير زين الدين كتبغا ، الذى تولى سلطنة

مصر والشام ، وذلك فى سنة تسع وتسعين وستمائة ، وشهد وقعة شقحب مع الملك الناصر محمد بن قلاوون .

ولم يزل على نيابة حلب الى أن خلع الملك الناصر ، وتسلطن الملك المظفر بيبرس الجاشنكير ، وصاحب الناصر فى الكرك فلما تحرك لطلب الملك ، واستدعى نواب الممالك ، أجابه قراسنقر ، وأعانه برأيه وتدبيره ، ثم حضر اليه وهو بدمشق ، وقدم له شيئا كثيرا ، وسار معه الى مصر حتى جلس على تخت ملكه بقلعة الجبل ، فولاه نيابة دمشق ، عوضا عن الأمير عز الدين الأفرم ، فى شوال سنة تسع وسبعمائة .

وخرج اليها ، فسار الى غزة فى عدة من النواب ، وقبضوا على المظفر بيبرس الجاشنكير ، وسار به هو والأمير سيف الدين الحاج بهادر الى الخطارة ، فتلقاهم الأمير أسندمر كرجى ، فتسلم منهم بيبرس ، وقيده وأركبه بغلا ، وأمر قراسنقر والحاج بهادر بالسير الى مصر . فشق على قراسنقر تقييد بيبرس ، وتوهم الشر من الناصر ، وانزعج لذلك انزعاجا كثيرا ، ألقى كلوتته عن رأسه الى الأرض ، وقال لفراشه الدنيا فانية ، ياليتنا متنا ولا رأينا هذا اليوم فترجل من حضر من الأمراء ، ورفعوا كلوتته ووضعوها على رأسه .

ورجع من فوره ، ومعه الحاج بهادر ، الى ناحية الشام ، وقد ندم على تسليم المظفر بيبرس ، فجد فى سيره الى أن عبر دمشق . وفى نفس السلطان منه كونه لم يحضر مع بيبرس ، وكان قد أراد القبض عليه ، فبعث الأمير نوغاى القبجاقى أميرا بالشام ليكون له عينا على الأمير قراسنقر ، ففطن قراسنقر لذلك وشرع نوغاى يتحدث فى حق قراسنقر بما لا يليق ، حتى ثقل عليه مقامه ، فقبض عليه بأمر السلطنة ، وسجن بقلعة دمشق

ثم ان السلطان صرفه عن نيابة دمشق ، وولاه نيابة حلب بسؤاله ، وذلك فى المحرم سنة احدى عشرة وسبعمائة وكتب السلطان الى عدة من الأمراء بالقبض عليه مع الأمير أرغون الدوادار ، فلم يتمكن من التحدث فى ذلك لكثرة ما ضبط قراسنقر أموره ، ولازمه عند قدومه عليه بتقليد نيابة حلب ، بحيث لم يتمكن أرغون من الحركة الى مكان الا وقراسنقر معه

فكثر الحديث بدمشق أن أرغون انما حضر لمسك قراسنقر ، حتى بلغ ذلك الأمراء ، وسمعه قراسنقر فاستدعى بالأمراء ، وحضر الأمير أرغون ، فقال قراسنقر بلغنى كذا ، وهاأنا أقول ان كان حضر معك مرسوم بالقبض على فلا حاجه الى فتنة ، أنا طائع السلطان ، وهذا سيفى خذه ، ومد يده وحلّ سيفه من وسطه .

فقال أرغون ، وقد علم أن هذا الكلام مكيدة ، وأن قراسنقر لا يمكن من نفسه : انى لم أحضر الا بتقليد الأمير نيابة حلب بمرسوم السلطان وسؤال الأمير ، وحاشا لله أن السلطان يذكر فى حق الأمير شيئا من هذا

فقال قراسنقر : غدا نركب ونسافر .

وانفض المجلس . فبعث الى الأمراء الا يركب أحد منهم لوداعه ، ولا يخرج ... سه رفرق ما عنده من الحوائص ومن الدراهم على مماليكه ليتحملوا به على * أوساطهم ، وأمرهم بالاحتراس ، وقدم غلمانه وحواشيه في الليل وركب وقت الصباح في طلب عظيم — وكانت عدة مماليكه ستمائة مملوك قد جعلهم حوله ثلاث حلقات — وأركب أرغون الى جانبه .

وسار على غير الجادة حتى قارب حلب ، ثم عبرها في العشرين من المحرم ، وأعاد أرغون بعدما أنعم عليه بألف دينار وخلعة وخيل وتحف ، وأقام بمدينة حلب خائفا يترقب ، وشرع يعمل الحيلة في الخلاص ، وصادق العربان ، واختص بالأمير حسام الدين مهنا أمير العرب وبابنه موسى ، وأقدمه الى حلب ، وأوقفه على كتب السلطان اليه بالقبض عليه ، وأنه لم يفعل ذلك ، ولم يزل به حتى أفسد ما بينه وبين السلطان .

ثم انه بعث يستأذن السلطان في الحج . فأعجب السلطان ذلك ، وظن أنه بسفره يتم له التدبير عليه لما كان فيه من الاحتراز الكبير ، وأذن له في السفر ، وبعث اليه بألفى دينار مصرية . فخرج من حلب ومعه أربعمائة مملوك معدة بالفرس والجنيب والهجن ، وسار حتى قارب الكرك ، فبلغه أن السلطان كتب الى النواب ، وأخرج عسكرا من مصر اليه .

فرجع من طريق السماوة الى حلب ، وبها الأمير سيف الدين قرطاى نائب الغيبة ، فمنعه من العبور الى المدينة ، ولم يمكن أحدا من مماليك قراسنقر أن يخرج اليه — وكانت مكاتبة السلطان قد قدمت عليه بذلك — فرحل حينئذ الى مهنا أمير العرب واستجار به ، فأكرمه وبعث الى السلطان يشفع فيه ، فلم يجد السلطان بدا من قبول شفاعة مهنا ، وخير قراسنقر فيما يريد ، ثم أخرج عسكرا من مصر والشام لقتال مهنا وأخذ قراسنقر .

فبلغه ذلك ، فاحترس على نفسه ، وكتب الى السلطان يسأله في صرخد ، وقصد بذلك المطاولة . فأجابه الى ذلك ، ومكنه من أخذ حواصله التى بحلب ، وأعطى مملوكه ألف دينار . فلما قدم عليه لم يطمئن ، وعبر الى بلاد الشرق في سنة ثنتى عشرة وسبعمائة في عدة من الأمراء بريد خربندا . فلما وصل الى الرحبة ، بعث بابنه فرج — ومعه شيء من أثقاله وخيوله وأمواله — الى السلطان بمصر ليعتذر من قصده خربندا ، ورحل بمن معه الى ماردين .

فتلقاه المغل ، وقام له نواب خربندا بالاقامات الى أن قرب الأردو . فركب خربندا اليه ، وتلقاه وأكرمه ومن معه ، وأنزلهم منزلا يليق بهم ، وأعطى قراسنقر المراغة من عمل أذربيجان ، وأعطى الأمير جمال الدين أقوش الأفرم همدان ... وذلك في أوائل سنة ثنتى عشرة وسبعمائة . فلم يزل هناك الى أن مات خربندا ، وقام من بعده أبو سعيد بركة بن خربندا .

فشق ذلك على السلطان ، وأعمل الحيلة في قتل قراسنقر والأفرم ، وسير اليهما الفداوية . فجرت بينهم خطوب كثيرة ، ومات قراسنقر بالاسهال ببلد المراغة في سنة ثمان وعشرين

(*) ص ٣٨٩ ، جـ ٢ ط . بولاق .





تصدره دار التحرير للطبع والنشر

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر و النيل
وذكر القاهرة ومايتعلق بها وبإقليميها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقيّ الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزى رحمه الله ونفع بعلومه آمين.



عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

الثمن ٦ قروش ولقراء الجمهورية والمساء ٣ قروش